

في كل شهر عربي

الجزء الأول	١ المحرم سنة ١٣٦٠	المجلد الثاني عشر

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

[illegible]

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراكات [illegible]

[illegible] ... ٢٠٠
[illegible] الأزهرية عامة ... ١٠٠
[illegible] القطر ... ٣٠٠

عن الجزء الواحد [illegible]

([illegible])

فهرس

الجزء الأول — المجلد الثاني عشر

صفحة

حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم

يشهد احتفال الأزهر بأول السنة الهجرية الجديدة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام يلقى خطابة جامعة

كان مساء الثلاثاء أول المحرم من هذه السنة (١٣٦٠) من الآونة التى تسجل فى تاريخ التجديد الدينى فى بلاد الاسلام ، فهذه أول مرة يشهد فيها ملك يمثل الاسلام فى جميع أطراف الأرض ، الاحتفال بعيد الهجرة النبوية ، فى حشد حاشد من علماء الملة ، ورجال الدولة ، وقادة الجيوش ، ليستمع الى إمام الدين ما يسمح به المقام فى ذكرى هذا الحادث الجلل .

نعم ، هذه أول مرة يسجل فيها حدوث هذه السنة الكريمة ، وإنها لتجديد عظيم الشأن يضاف الى سائر التجديدات التى سنها حضرة صاحب الجلالة الفاروق فى الناحية الدينية ، وكان لها صدى رنان فى جميع الأقطار الاسلامية ، مما سيكون تقليدا من تقاليد المعاهد فى جميع الأمصار ، فيتجلى بذلك من حكمة هذا الدين ، ومن سمو نظره ، فى التقريب بين الحاكمين والمحكومين ، ما يكون سببا فى فهم الناس له ، وتقديرهم لقدره ، وفى حرصهم على إقامة شعائره ، والاهتداء بهديه .

إصلاح بعيد المدى يوفق إليه جلالة الملك الفاروق فى عصر ركبت فيه المادية رأسها ، وافتكت من عُقُلها ، فاقتادت الذين فتنتهم سفسطاتها الى حيث يفقدهم رشدهم ووجودهم ، فهل كنت تتصور أن شيئا ، مهما عظم شأنه ، يستطيع أن يردهم الى الصواب على نحو ما تردهم مواقف جلالة الملك من احترام الدين وإكباره ، والاحتفال بمواسمه وأيامه ؟

ومما يستبشر به المؤمنون أن يتولد هذا التجديد الخطير فى عهد الإمام المراغى ، وأن يتولى هو كِبْره ، وهو أقدر العلماء المعاصرين على إحاطة هذه التجديدات الملكية العالية بما هى أهله من تجلية الروح الإسلامية فى أجل ما تستهدفه من إصلاح الأفراد والجماعات ، وأبعد ما ترمى إليه من شريف المقاصد والغايات ، مما ينبه الغافلين الى حقيقة هذا الدين ، ويقوى فى نفوس أهله ما ضعف من الشعور بجلاله وجماله ؛ وإنها لخطة خطيرة حفظها الله لفضيلة الأستاذ الامام ، ولا يحفظ أمثالها إلا للافذاذ الموهوبين ؛ وهو بما توفر على خدمة العلم وأهله ، وتجرد للنظر فى وجوه إصلاحهم وإرشادهم ، جدير بأن يكون فى طليعة هذه الحركة الطيبة ، التى سبق فيها المسلمون اليوم ، متأثرين ببواعث ليس فى مكنة أحد صدها ، والوقوف فى وجهها .

استهل حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام خطبته بذكر ما يتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم نسبا وحسبا ، وشمائل وأدبا ، وما منَّ الله عليه من عوامل التكميل حتى استأهل أن يكون خاتم المرسلين ، والمبعوث رحمة للعالمين ، بالدين الفطري ، والصراط السوى . ثم ألم فضيلة الأستاذ الامام بذكر ما أوجب الهجرة من الاضطهادات العنيفة ، ثم بذكر واضع التاريخ من الهجرة ، وهو أمير المؤمنين عمر ، ثم وجه فضيلته القول الى جلالة الملك ، مصرحا بأن جلالته أول ملك مسلم شهد حفلة الهجرة ، وبذلك شارك عمر الفاروق فى العناية بها ، وإظهار خطرها ، وعظم شأنها .

ثم ألم فضيلته بذكر المدنية الفاضلة ، وهنا تجلت كما تجلت فى جميع مواقفه الخطابية ، خصوصية فضيلته فى البيان والتبسط ، والتأثير البالغ فى العقول ، فكان لكلامه وقع عظيم فى القلوب . ونحن ندون هنا هذه الخطابة كاملة ، لنوصلها الى أقصى ما يمكن أن تصل إليه مجلة من بلاد المسلمين .

أعاد الله هذا الموسم المعظم على جلالة الملك والأمة الإسلامية قاطبة فى يمن وإقبال ، إنه سميع الدعاء ، مجيب النداء ؟

محمد فريد وجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمدك اللهم ، وأنت الحقيق بالحمد والثناء ؛ وأصلى على أفضل أنبيائك وخاتم رسلك ، وعلى آله وصحبه .

وبعد : فقد كان سيدنا محمد بن عبد الله من أوسط العرب نسبا ، وأكرمهم محتدا ، ليس فى آبائه إلا من هو سيد كريم ؛ وكان جده عبد المطلب شيخا مقدما فى قريش ، يصدرون عن رأيه ، ويقدمونه فى مهماتهم ؛ وكان عليه السلام أحسن قومه جوارا ، وأكرمهم مخالطة ، وأعظمهم حلما ، وأشدهم أناة ، وأكثرهم حياء ، وأصدقهم حديثا ؛ ذلك الى شجاعة وعفة ، وكرم وتواضع ، وصبر وشكر ، حتى قال النضر بن الحارث ، وهو أشد قومه خصومة له : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ؛ لا والله ما هو بساحر ! ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : ما كان محمد ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله .

ولما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، اختاره الله رسولا ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، واصطفاه لحمل أمانة التبليغ عنه وتلقى الوحى ، فكان بشيرا ونذيرا ، أخرج الناس من ظلمة الكفر والجهل ، الى نور الإيمان والعلم ، ورفع قدر الانسانية ، وسما بخلقه وأدبه ، وعلمه وتعليمه وهديه ، الى أعلى مقام يبلغه بشر .

قام بالدعوة أول الأمر سرا ، لا يدعو إلا من وثق به أو توسم الخير فيه ، فلبى الدعوة طائفة من الأشراف كأبى بكر ، وعثمان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، ممن استنارت بصائرهم ، وصفت قلوبهم ، ولم تحجبها ظلمات التقليد والعناد ، عن نفاذ نور الحق اليها ؛ كما دخل فى الدين جمع من الموالى . وكان متبعوه لا يتمكنون من إظهار عباداتهم خوفا من تعصب قريش عليهم ومن إيذائهم .

ثم أمر بالجهر بالدعوة ، ونزل عليه قوله سبحانه : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ؛ فصدع بالأمر ، وبادر الى الامتثال ، فصعد الصفا ونادى بطون قريش وقال لهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا . قال : فانى نذير لكم بين يدىْ عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ؟ ! ثم نزل عليه قوله سبحانه : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فجمعهم قائلا لهم : إن الرائد لا يكذب أهله ؛ والله لو كذبت الناس جميعهم ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعهم

ما غررتكم ؛ والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة والى الناس كافة ؛ والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها الجنة أبدا أو النار أبدا . فتكلم القوم بكلام لين غير عمه أبي جهل فانه قال : خذوا على يديه قبل أن تجتمع العرب عليه !

بدأ الدعوة بالدعوة الى توحيد الله ، وإفراده بالعبادة ، وإلى ترك الأصنام والأوثان ، والوسطاء والشفعاء ، فالله أقرب الى العبد من حبل الوريد ، وهو مع العباد أينما كانوا . وطالب الناس بالإحسان وترك الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وحرم قتل النفس إلا بحق ، وقتل الأولاد خشية الفقر . وطالب بإيفاء الكيل والوزن ، وبالعدل فى الحكم ، والوفاء بالعهد .

تجمعت لدى من أعمى الله بصائرهم ، وطمس على قلوبهم من قومه ومن العرب ، شتى الأسباب والدواعي لمناهضته ومقاومته : حسد الأهل وذوى القربى ، وخوف الرؤساء من ذهاب رياساتهم ، والغيرة على المعتقدات وعلى الآلهة التي كانوا يعتقدون أنها تقربهم الى الله زلفى ، والغيرة على سيرة الآباء والأجداد ، والمحافظة على تقديس ما كانوا عليه .

من هذا الذي سفه عقولنا وأحلامنا ، وأحلام آبائنا ، وسخر بآلهتنا ؟ من هذا الذي يدعي النبوة ، وما هو إلا واحد منا يأكل الطعام ويمشي فى الأسواق ، لم يخصه الله دوننا بغنى ، ولم تحول له جبال مكة ذهبا ، ولم تفجر له الأنهار تطرد فى خلال الجنات ، ولم ينزل عليه كنز من السماء ، ولم ينزل السماء علينا كسفا ، ولم يصعد الى السماء ثم ينزل وبيده كتاب يقرأ ، ولم يأت بالله والملائكة قبيلا ؟

قالوا هذا ، وكانوا شديدى الحرص على معبوداتهم ، وعلى عاداتهم ، وعلى تقديس ما كان عليه آباؤهم ؛ فأجمعوا أمرهم على مقاومته ، وعلى الوقوف فى سبيل دعوته ، وعلى خنقها قبل أن تشب عن الطوق ، وقبل أن يكثر أتباعه وجنوده ، وقبل أن يعتز بقوة لا يستطيعون ردها .

لقى منهم الجهد والعنت والمشقة ، وصنوفا من الأذى متعددة الألوان ، لا يستطيع احتمالها والصبر عليها ، إلا نفس ذكية طاهرة ، مخلصة فانية فى الله ، لا يجول فيها إلا خاطر واحد ، هو هداية الناس ، وأن تتفجر ينابيع الدين ، فتجرى أنهارا فى تلك الصحراء ، ثم تسبح وتنساب الى سائر البقاع ، وأن يشرق ذلك النور الإلهي على قلوب العرب وقلوب غيرها من الأمم ؛ وكان حريصا أشد الحرص على هداية قومه ، فاحتمل هذا العنت كله ، طمعا فى هدايتهم ، ولم يعتزم الهجرة إلا بعد أن صفر وطابه ، ولم يبق معه سهم يرميه .

اتفقوا على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب أقرب الناس اليه ، وعلى إخراجهم من مكة ، والتضييق عليهم ، فلا يبيعونهم شيئا ، ولا يبتاعون منهم شيئا ، ومنعوا التجار من مخالطتهم

ومعاملتهم ، وأودعوا ذلك صحيفة أودعوها جوف الكعبة . فعلوا ذلك ليُسلمه قومه اليهم حتى يقتلوه .

حزبه الكرب ، وضاقت عليه السبل جميعها ، وظن أن ثقيفا بالطائف تنصره إن هو استنجد بها ، فذهب اليهم فردوه ردا قبيحا ، وأرسلوا وراءه غلمانهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه . واسمعوا ما قاله إذ ذاك تتبينوا ما كان يحيط به من الألم والهوان : قال صلوات الله عليه وسلامه : « اللهم إنى أشكو اليك ضعف قوتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » . فهو لا يبالى بالألم الحسى فى جسده الشريف ، ولا بالألم النفسى من الهوان إن لم يكن بالله غضب عليه . ذلك لأنه كان لله وفى سبيل الله ، وللحق وفى سبيل الحق . وفى هذه الرحلة لم يستطع العودة الى بلده مكة إلا فى حماية المطعم بن عدى حيث جرد هو وأولاده سيوفهم لحمايته.

تلمس الفرج عند وفود العرب ، تفد الى الموسم بمكة ، فلاح بصيص من النور . عرض نفسه على القبائل ، فأسلم ستة من الأنصار ، وأسلم جمع فى موسم آخر ، وعادوا ، فذاع ذكر الاسلام فى دورهم ، ولم يبق لهم حديث إلا حديث الاسلام . ثم بايعه فى موسم آخر ثلاثة وسبعون رجلا من الأوس والخزرج . وبدأ الاسلام بعد رجوعهم يذيع أكثر من قبل . ثم أمر المسلمين بالهجرة الى المدينة .

هنا هاج الشر ، وتحركت الأحقاد ، وأصابهم مس من الشيطان . أصبح لمحمد أتباع يذودون عنه كما يذودون عن أولادهم ، وانتشر دينه فى ربوع المدينة وما حولها ؛ ولمحمد شخصية جذابة قوية التأثير بحديثه وأخلاقه وصفاته ، وبيده كتاب أدركوا قوته وروعته فى النفوس ، وجربوه من قبل فى أنفسهم .

لا بد لهم من قتله قبل أن يوجد السلطان بيده ، فاتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا ، وعلى أن يجتمع أولئك الشبان أمام داره ليضربوه ضربة رجل واحد ؛ وإذ ذاك يتفرق دمه فى القبائل ، ولا يستطيع قومه أن يقاتلوها كلها .

محمد الآن بين أمرين : إما القتل وزوال هذا الدين ودثور الحق وانطفاء نوره ، وإما النجاة والفرار من هذا الظلم ، وتلمس الحرية فى أرض توجد فيها الحرية والطمأنينة على النفس والدين ، فبتّ فى الأمر وقرر الهجرة .

كانت الهجرة ، وصاحبتها أهوال ؛ لكن الله ينصر من ينصره ؛ فوصل المدينة سالما ، ووجد أتباعا يفدونه بالنفس والأولاد ، وتتابع نزول القرآن بالهدى والحق ، وتمت النعمة على المسلمين والعالمين .

لم يكن من غرضى فى ذكر الحوادث ، إلا ذكر القدر الذى يتجلى فيه أن الهجرة كانت

حدا فاصلا بين الضعف والقـوة ، وبين العز والهون ، وبين الخفاء والظهور ، وبين الحق والباطل ؛ وأنها كانت من أجلّ الحوادث فى تاريخ الإسلام . والهجرة سنة من سنن المرسلين ، وسنة من سنن المصلحين من بعدهم . والحرية أثمن شيء وأعزه لدى الإنسان ؛ والاعتداء عليها يعادل الاعتداء على النفس ؛ ويجب الدفاع عنها ، والقتال فى سبيلها . انظروا قـول الله سبحانه : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » . سمى الله سبحانه الصبر على الضيم والذل ، والصبر على ترك الجهر بالحق ، ظلما للنفس ، يجب الفرار منه عند عدم القدرة على دفعه ، ويجب ترك الأوطان والخروج عن الديار والمهاجرة الى غيرها إذا لم توجد العزة ؛ وإذ ذاك تكون الهجرة هجرة فى سبيل الله .

مولاى صاحب الجلالة :

روى الطبرى فى تاريخه أن العرب لم تكن تؤرخ على أمر معروف يعمل به عامتهم ، وكان المؤرخ منهم يؤرخ بولاية عامل عليهم ، أو بالأمر الحادث ينتشر خبره عندهم ، أو بسنة « مجدبة » فى ناحية من نواحى بلادهم . والمشهور أن الفاروق عمر بن الخطاب هو أول من جمع المسلمين للمشورة فى أمر التاريخ ، وأنهم عرضوا عليه أمورا : التاريخ لمولده صلى الله عليه وسلم ، والتاريخ لمبعثه ، والتاريخ لوفاته ، والتاريخ لهجرته ؛ فاختار من بين ذلك كله التاريخ لهجرته ، وقال : إن الهجرة فرقت بين الحق والباطل . ورضيه الصحابة رضى الله عنهم .

وقد اخترتَ يا صاحب الجلالة بتوفيق من الله ، أن تتوج حفلة الهجرة بشرف حضورك وشهودها ، وأنت — فيما أعلم — أول ملك مسلم شهد حفلة الهجرة . وبذلك شارك الفاروق ابن فؤاد ، الفاروق بن الخطاب فى العناية بأمر الهجرة ، وإظهار خطرها فى الإسلام .

مولاى :

قد آن للمسلمين أن يفكروا ، ويبادروا الى اعتناق مدنية فاضلة ، أساسها الدين ، وقوامها الأخلاق والتقاليـد التى أثبتت التجارب حسنها قبل أن يشيع الفساد ، وقبـل أن تمهد اللذة والشهوة ، وقبل أن يشيع تقليد الغرب فى كل شيء ؛ مدنية تجمع بين تقاليدنا النافعة الواقية من الفساد ، وبين ما هو حسن نافع من مدنيات غيرنا ؛ نأخذ كل ما أحدثه البشر من محدثات نافعة مفيدة ، ونطرد كل ما أبدعوه من شر وفساد ؛ وقـد نبتت الأديان كلها فى الشرق ، فليس بعجب أن تحيا فيه تلك المدنية الفاضلة ، إذا تعاضد الناس على الأخذ بيدها وحمايتها .

ولا إخال إلا أن الناس قد أدركوا ، وإن لم يكونوا متمسكين بدين ، أن الرجوع الى الأديان خير مما يتخبطفيه الناس من ضلال . ولعل الذين كانوا يدعون الى تقليد الغرب فى كل شيء ،

والتمسك بدينه كما هي ، قد أدركوا الآن أنهم لم يكونوا على حق فى دعوتهم ، وخصوصا بعد أن رجع أولئك المقلدون المقتدى بهم عن مذاهبهم ، وثبت لهم أنهم كانوا على ضلال مبين .

وأوجه من هذا المكان الطاهر تهنئتى الى جميع المسلمين فى الأقطار بحلول العام الهجرى الجديد ، ضارعا الى الله سبحانه أن يجعله عام خير وبركة ، ويمن وسلام عليهم وعلى الانسانية ، وأن يرفع عنه هذه الشرور الطاغية ، التى جعلت العالم جميعه يحس شدة كربها ، ويرجو زوالها .

وأسأل الله سبحانه أن يديم لهـذه البلاد حضرة صاحب الجلالة مليكنا المحبوب : فاروقا الأول ، وأن يعزه بالاسلام ويعز به الاسلام ، وأن يرعاه برعايته ، ويديم له توفيقه .

والسلام عليـكم ورحمة الله ؟



بسم الله الرحمن الرحيم

السنة الثانية عشرة لمجلة الازهر

الحمد لله مانح الحكمة للمتقين من عباده ، ومفيض النور على السالكين سبيل إرشاده ، والصلاة والسلام على من أرسله بالكلمة الجامعة ، والطريقة الناصعة ، وأمده بالحجج الساطعة ، والدلائل القاطعة ، خاتم المرسلين محمد ، وعلى آله وصحبه وتابعيه الى يوم الدين .

أما بعد فاننا بهذا العدد نفتتح السنة الثانية عشرة لهذه المجلة ، ونحن على العهد الذى قطعناه على أنفسنا يوم أن نُدبنا للعمل فيها ، من بذل أقصى وسعنا لابلاغها المكانة التى يجب أن تبلغها مجلة تمثل أكبر وأقدم جامعة إسلامية . فان كنا قد وُفقنا الى ذلك فبفضل الله وتوفيقه ، وبما أمد به العلماء والكتاب الذين تفضلوا بمعاونتنا على تحقق هذا المقصد الجلل ؛ وإنا لنرجو أن يزيدنا الله فضلا وتوفيقا فى الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة .

ومن الحق أن نذكر أن لنشر ما يلقيه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام فى المناسبات من الكلمات الجامعة ، والبحوث المستفيضة ، أثراً كبيراً فى إحلال هذه المجلة محلها الذى تحظى به فى نظر القارئين . وقد حلينا صدر هذا العدد بما فتحه الله عليه من تفسير ما ورد فى وصف عباد الرحمن فى خمس عشرة آية من آخر سورة الفرقان ، وهو أكمل وأوفى تفسير لهذه الآيات المحكمات ، مما تدعو إليه الحاجة فى هذا العصر ، وسنتبعه بما ألقاه فضيلته من الدروس الدينية فى شهر رمضان فى حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول حامى حمى الاسلام، ومعظم شعائره ، ومعلى كلمته ، ومعزز شيعته .

أما ما اعتزمنا أن نطرقه من البحوث ، فهو كل ما يكون من أثره إيقاظ العاطفة الدينية فى النفوس ، وتوجيه الشخصية الانسانية الى الوجهة التى فيها كمالها وسعادتها .

وقد دأبنا مذ انتدبنا لخدمة الاسلام أن نستأنس بالعلوم الكونية ، وبالفلسفة الغربية ، علما منا أن اتصال ثقافتنا بالثقافة الغربية ، يحتم علينا أن نلم بالأطوار التى دخلت فيها هذه الثقافة الأخيرة من الناحية الأدبية ، غير متورعين من إيراد شبهات الماديين منهم ومحاكمتها الى أصول العلم ومقررات الفلسفة الصحيحة . وقد أنجح هذا الأسلوب فى لفت النظر الى ما فى الاسلام من حكمة عالية ، ومناعة لا يطمع معها فى زعزعته . وفقنا الله الى خير ما يتفضل به على السالكين إليه ، من مثابرة وهداية ، إنه ولى الكفاية ؟

محمد فريد وجدى

حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام

يفتتح موسم المحاضرات فى جمعية الشبان المسلمين

دعا حضرة صاحب السعادة صالح حرب باشا رئيس جمعية الشبان المسلمين ، حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام ، ليتفضل بافتتاح موسم المحاضرات فيها . فلبى فضيلته هذه الدعوة بما أثر عنه من التشجيع على كل عمل طيب يرجى منه صلاح لشؤون المسلمين ، وفائدة لعقولهم وأرواحهم . فقصد دار تلك الجماعة الموقرة فى مساء يوم ٢١ شوال سنة ١٣٥٩ واعتلى منبر المحاضرات فى حشد من رجال العلم ، وكبار رجال الدولة ، ولفيف من الأدباء وحملة الأقلام ، وافتتح هذا الموسم الثقافى الجليل ، باسم الله الكريم ، وتفسير خمس عشرة آية من الكتاب الحكيم ، وردت فى بيان صفات عباد الرحمن فى آخر سورة الفرقان .

جمعت هذه الآيات الكريمة من صفات عباد الرحمن ما لم يجتمع مثله فى غير القرآن ، وحصرت من حالتهم النفسية ما يجب على كل سالك سبيله أن يعرفه ، فهى لمن يعرف أسرار المعارف البسيكولوجية الحديثة ، آيات ناطقة باعجاز هذا الكتاب السماوى ، وبأن الوسع البشرى لا يصل الى تصوير هذه المرتبة العليا التى يصل اليها بعض الناس ، على هذا النحو من التحديد والاستيفاء ، فى هذا القالب من البيان الذى تنتهى إليه أسباب البلاغة كلها بأوسع ما فُهمت عليه من معان . ومن عجب أنها قد جمعت من أمهات الفضائل النفسية ، والآداب الاجتماعية ما لا مزيد عليه فى تكوين الشخصية الكاملة ، المؤاخية بين السمو الروحى والحياة الدنيوية ، وهى ما أعجز الفلاسفة أن يجمعوا بينهما فى قلب رجل واحد ، مدعين أن الكمال الادبى ينافى الكمال الدنيوى ، فجمع بينهما الاسلام ، وربى عليهما جماعة بزت العالمين فى كرامة الناحيتين ، فكانت مثلا أعلى للجماعات المستقبلة .

وقع اختيار فضيلة الأستاذ الإمام على هذه الآيات ، فتناولها بالفهم المستنير الذى عهده فيه المسلمون ، فجاء بأكمل ما يمكن أن يُفهم منها فى هذا الموطن ، ولم يدع ناحية من نواحى النظر فى تلك الآيات الكريمة إلا جال فيها بفكره المصيب ، ونظره البعيد ، فأتى بأحسن ما يستطاع أن يؤتى به فى هذا الموطن الرهيب .

لم تتجل مواهب الأستاذ الإمام فى تصوير المعانى العالية ، وتوضيح الاشارات الخفية فى موطن من المواطن ، كما تجلت فى شرح ما نحن بسبيله من الآيات ، فإذا كان ينبغى أن يوضع تفسير عصرى للقرآن ، وجب أن يوضع على هذا النحو ، ونحن نرجو أن يبارك فى وقت فضيلته ، وأن يُفسح له فى الحياة ، حتى يقوم للعالم الاسلامى بهذه الخدمة الكريمة .

وقد بادرت إدارة الاذاعة اللاسلكية المصرية فالتقطت أقوال فضيلة الأستاذ الامام على شريط راديوغرافى وأذاعتها على الناس بعد الاعلان عنها ، فسمع سكان أكثر الأقطار الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها هذا التفسير القيم لصفات عباد الرحمن ، فكان هذا العمل الاذاعى من أبرك الأعمال وأولاها بالتحبيذ والتقدير .

والذى نستطيع عمله فى سبيل الاعانة على إذاعة هذه المحاضرات الثمينة أن ننشرها فى مفتتح المجلد الثانى عشر لمجلة الأزهر ، راجين أن نوفق الى طبعها فى كراسة خاصة ليتخذها كل مسلم دستورا له فى الحياة الطيبة ؟

محمد فريد وجدى



السيرة المحمدية
تحت ضوء العلم والفلسفة

المعركة الفاصلة بين المسلمين والمشركين — وقعة الأحزاب

إن الحالة القبيلية التي كان عليها العرب لم تكن لتسمح لهم أن يجمعوا على أمر يقومون به مجتمعين ، وإن كان له أكبر تعلق بهم كافة . ولم يكونوا من الناحية الدينية أيضا على شيء مما يدفع غيرهم الى التكافل للذود عن عقائدهم الموروثة ، فلم يكترثوا لظهور دين جديد يعيب عليهم وثنيتهم ، ويحقر آلهتهم ، ويتوعدهم بالهلاك وسوء المنقلب . هذه الحالة تكشف عن مبلغ التفكك الذي كانوا عليه ، وعن خمود العاطفة الدينية فيهم . فإذا كانت قريش قد تحركت لمكافحة المسلمين في دار هجرتهم مرتين قبل هذه ، فان ذلك منها كان يرجع الى عوامل اقتصادية ، لإزالة العقبة التي أقامها المسلمون في طريقهم الى الشام . ولولا ذلك لما حدَّث أحد في قريش نفسه لغزو المسلمين في يثرب .

ولكن اليهود الذين نزلوا بين أظهرهم مهاجرين منذ أجيال ، وتعلموا لغتهم ، وتسموا بمثل أسمائهم ، كانوا على غرار إخوانهم في جميع بقاع الأرض ، يعرفون الوحدة الاجتماعية ، والجامعة الدينية ، ويدركون ما يبتنى على انتشار دين بَيِّن المقاصد والغاية في البلاد العربية ، من الوحدة الاجتماعية والسياسية ؛ وهم مع كفرهم بهذا الدين كانوا يرون فيه خطرا على وجودهم هنالك ، وكانوا يظنون أن المسيحيين إذا كانوا على ما أُمروا به من الرحمة والعطف ، يبالغون في اضطهادهم ، فلا يعقل أن يجيء أهل دين يكونون أرق قلبا منهم ؛ لذلك هالهم أن يستتب الأمر للاسلام في دار هجرته الجديدة ، فلا يلبث أن تصبح له دولة وصولة ، فيجدوا أنفسهم مضطرين للهجرة ، والى أين هذه المرة ، وليس في المعمور من يرحب بقادم عليهم من أهل ملة غير ملتهم ؟ حملهم هذا كله أن ينتدب جماعة من عِلْيتهم ، منهم سلام بن مشكم وابن أبي الحقيق وحيي بن أخطب ، خرجوا من خيبر وقدموا على قريش في السنة الخامسة من الهجرة ، وأخذوا يحسنون لهم أن يؤلبوا العرب على حرب محمد وجماعته ، حتى يستأصلوهم أو يمزقوا وحدتهم ، ويبطلوا دعوتهم ، خشية أن تصبح لهم دولة فلا يكون لهم ولا لغيرهم محيص عن الخضوع له ، والدخول في دينه ، وهو ما قد لا يرضاه منهم . وما زال هذا الوفد يحسنون لقريش هذا الأمر

ويسولونه لهم حتى زعموا أن ما عليه المشركون من الدين خير من الاسلام الذى يدعو إليه محمد. وكبير من أمة موحدة أن تداهن أمة وثنية الى هذا الحد الشائن ، وقد سجل الكتاب الكريم هذا الخزى عليهم بقوله تعالى : « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا. أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » . فسر المشركون من هذه الشهادة وقبلوا دعوتهم ، لا لأنهم يأبهون بالدين ، ولكن ليتخلصوا من عدو منع عليهم التقلب فى البلاد ، وتلمس الرزق منها .

ثم جاء هذا الوفد بنى غطفان وكلموهم فى غزو المسلمين ، وما كان ليهمهم هم أيضا أمر الدين ، ولكنهم رشوهم بمحصول تمر خيبر سنة ، فقبلوا دعوتهم .

فخرجت قريش وغطفان ومعهما حلفاؤهما ، فكانت عدة الأولين أربعة آلاف معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير ، ولاقتهم بنو سليم وعددهم سبعمائة ، تحت قيادة سفيان بن عبد شمس ، وتبعهم بنو أسد تحت قيادة طليحة بن خويلد . وخرجت غطفان تحت قيادة عيينة بن حصن ، وبنو مرة تحت إمرة الحارث بن عوف ، وبنو أشجع تحت زعامة مسعر بن رُخيلة ، وخرج من يتصل بهم من القبائل حتى بلغ عددهم عشرة آلاف ، وقبل هؤلاء المتحالفون أن يكونوا جميعا تحت قيادة أبى سفيان بن حرب سيد قريش وقائدها المحنك .

لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم خبر خروج هذا الجيش ، ندب أصحابه للجهاد ، فكان عددهم ثلاثة آلاف ومعهم ست وثلاثون فرسا .

وبينما هم ينتظرون قدوم المشركين أشار سلمان الفارسى رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم ، أن يتقى المغيرين عليه بخندق على عادة قومه . فقبل النبى هذه المشورة وأمر بعمله ، وساهم بنفسه فى حفره ، ورفع التراب على عاتقه . وامتنع أكثر المنافقين عن العمل . وكان سلمان يعمل عمل بضعة أشخاص ، مدفوعا بشدة إيمانه . فتنافس فيه الصحابة ، فقال الأنصار : سلمان منا ، وقال المهاجرون : بل هو منا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « سلمان منا آل البيت » .

ولما أقبلت القبائل المتحالفة ذهب حيي بن أخطب اليهودى الى سعد بن أسد القرظى سيد بنى قريظة من اليهود المحالفين للمسلمين ، وما زال به حتى أغراه على نقض عهده والانضمام الى القبائل المتحالفة ، ولكنه ما عتم أن رجع عما قاله ولم ينضم الى المغيرين .

وخرج المسلمون من المدينة فى ثلاثة آلاف تحت قيادة النبى صلى الله عليه وسلم ، فجعلوا ظهورهم الى جبل سَلْع وعسكروا إزاء المشركين وبينهم الخندق . وعظم البلاء على المسلمين ، وجاهر المنافقون بما تكنه صدورهم ؛ وقد حكى الله ذلك عنهم فقال : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » ، وقالوا : « يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا » وقالوا : « إن بيوتنا عورة (أى غير حصينة) » ، واستأذنوا فى الرجوع

ليحموها . وقال معتب بن قشير ، وكان منهم : كان محمد يرى أن نأكل من كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب الى الغائط .

عند ذاك رأى النبى صلى الله عليه وسلم أن يحاول فصم جماعتهم بما يؤثر على أنفسهم من متاع الدنيا ، فبعث الى عيينة بن حصن الفزارى قائد بنى غطفان ، والى الحرث بن عوف المرى قائد بنى مرة ، أن يرجعا عن قتاله ولهما ثلث ثمار المدينة . ولكنه أراد قبل أن يبت فى الأمر أن يستشير زعيميها الكبيرين : سعدبن معاذ وسعدبن عبادة ، فطلبهما ، ولما حضرا استشارهما فى ذلك . فقالا يا رسول الله هذا أمر تحبه فتصنعه ، أم شىء أمرك الله به ، أم شىء تصنعه لنا ؟ فإن كان أمرا من السماء فامض له ، وإن كان أمرا لم تؤمر به ولك فيه هوى ، فسمعا وطاعة ، وإن كان هو الرأى ، فما لهم عندنا إلا السيف . فقال رسول الله : لو أمرنى الله ما شاورتكما ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر شوكتهم الى أمر ما ، وأبطل ما عزموا عليه .

لما قدم جيش القبائل المتحالفة ، نزلت قريش بمجتمع السيول بين مكانين حيال المدينة يسميان بالجرف والغابة ، هم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة ، ونزلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد الى جنب جبل أحد .

أما جنود المسلمين فجعلوا ظهورهم الى جبل سلع ، كما قدمنا ، والخندق بينهم وبين القوم .

ولما تصاف الفريقان للقتال ، أقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له ينظر من أى ناحية يقتحم الخندق ، فهوى فيه واندقت عنقه ، فعظم ذلك على المشركين وطلبوا الى رسول الله أن يسلمهم جثته ليدفنوه ويدفعون اليه عشرة آلاف درهم ، فسلمه إليهم ليدفنوه ولم يقبل الدية .

وقف المشركون دون الخندق حائرين لا يدرون ماذا يعملون لاقتحامه ، وكان كبار قادتهم يتناوبون عليه ، فكان أبو سفيان يغدو إليه يوما ، وخالد بن الوليد يوما ، وعمرو بن العاص يوما ، ولم يكونوا قد أسلموا بعد ، ويغدو غيرهم كذلك ، يجيلون خيلهم يفترقون مرة ويجتمعون أخرى ، يناوشون المسلمين ويناضلونهم بالنبل .

وبينما الجيشان على تلك الحال ، والمسلمون فى قلقهم مستسلمون لقبول ما قُدِّر عليهم ، مع ترابطهم ترابطا لا تفصم له عروة ، إذ هبت ريح صفراء عصفت بالمعسكرين معا ، واشتد البرد والظلام ، حتى اضطر أكثر المسلمين الى الالتجاء الى دورهم خشية الهلاك ، ولم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم فى ميدان القتال غير ثلاثمائة ، ولم يقتصر أمر هذه الريح على ما أثارته من الرمال ، وما أحدثته من برد قارس ، ولكنها مالبثت أن اشتد هبوبها حتى قلعت الأوتاد ، وأطفأت النيران ، وألقت الخيام وأكفأت القدور ، وسفت التراب ، وأثارت الحصباء ، فرأى المشركون أن المقام على هذه الحالة متعذر ، وخاصة بعد أن أقاموا إزاء الخندق أسبوعين ، وقيل أربعة

وعشرين يوما ، وقيل شهرا ، لم يجدوا وسيلة لاقتحامه ، فقرروا العدول عن هـذه الغارة ، وأول من أعلن ذلك قائدهم أبو سفيان إذ قال :

« يا معشر قريش والله إنـكم لستم بدار مقام ، وقـد هلك الـكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة (وكانت امتنعت عن الانضمام اليهم) ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل » . وأخذ بزمام بعيره يقوده ويقول للناس : ارحلوا ارحلوا ! فجعـلوا يرحلون حتى لم يبق منهم أحد ، ونجى الله المؤمنين من غائلة المشركين ، وكانت هذه الغارة خاتمة محاولاتهم الشريرة التى رموا بها الى إطفاء نور الله فأبى الله إلا أن يتم نوره .

وقد ذكر الله هذه الغارة فى سورة الأحزاب من كتابه الـكريم ، وذكر فيها من أحوال المنافقين ودسائسهم ما فيه معتبر . قال الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب لا مُقام لـكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ، إن يريدون إلا فرارا . ولو دُخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من المـوت أو القتل ، وإذن لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا . قد يعلم الله المعوِّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحةً عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، أشحةً على الخير ، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا . يحسَبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائـكم ، ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا . لقد كان لـكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدَنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما . (أى أنهم لما رأوا الأحزاب مقبلين يتوقدون حماسة ، قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله من نزول الشدائد امتحانا لإيمان عباده ، وقد صدق الله ورسوله فى أن العاقبة للصابرين ، وما زادهم هول ما رأوا إلا إيمانا وتسليما) . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله

الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء ، أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفورا رحيما . ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا »

رأينا فى هذه الغارة الفاشلة :

الذى تبيناه من النظر فى عوامل هذه الغارة وأدوارها عدة أمور :

(أولها) أن قريشاً وسائر العرب كانوا بسبب ما هم عليه من القصور الاجتماعى والدينى قليلى الاكتراث لما يحدث بعيداً عنهم من التطورات لطائفة أخرى ، حتى ما كان منه عائدا بالضرر على معاشهم . وهذا الضعف فى الشعور نتج من حالة التفكك التى كانوا عليها ؛ والمجتمع كالفرد إن لم يتم تألفه ، ويكمل تشكله ، لا تظهر فيه خصائص الاجتماع ولا حوافظه . ولو لا أن رجالا من اليهود انتدبوا لاهاجة قريش وبعض القبائل المحالفة لهم على الغارة على المسلمين ، لما فعلوا . ولما كانوا قد دُفعوا اليها دفعاً باغراء غيرهم ، فان ما حدث من ثورة الريح فى تلك المنطقة كان كافيا فى إرجاعهم عن قصدهم . نعم إن العواصف التى ثارت فى سنة (١٥٨٨) على أسطول فيليب الثانى ملك أسبانيا ، أمام شواطىء انجلترة ، كفت هذه المملكة شره ، وكان أقوى أسطول فى العالم ، وقد دُعى (أرمادا) ومعناها الذى لا يقهر ، ولكن كان لخيبته سبب مادى وهو أن تلك العواصف حطمت أكثره على صخور الجزر البريطانية فلم يعد يصلح لعمل ، فعاد ما سلم منه على أسوأ حال . ولكن الريح الباردة التى ثارت على الجيوش المتحالفة لم تحدث من الخسائر المادية ما يقتضى أن يرجعها أدراجها ، وقد دل الكتاب الكريم على ذلك بقوله تعالى : « وجنودا لم تروها » وهذه الجنود هى العوامل الروحانية التى نفثت الرعب فى قلوبهم ، وسولت لهم النكوص على أعقابهم ، فلو كانت تلك الريح تكفى وحدها فى خذلهم لما عززها الله بهذه العوامل .

والذى يدل على أن العرب كانوا فى قصور بعيد المدى من الناحيتين الاجتماعية والدينية ، أن بنى غطفان قبلوا أن يأخذوا ثلث تمر المدينة ثمنا لخيانة حلفائهم ، مستهينين بالغرض الكبير الذى دعا الى تآلفهم ، وليس هذا بعجيب فى حياة القبائل .

(ثانيها) أن إيثار الأنصار للدفاع عن حوزتهم بالسيف ، حين استشارهم رسول الله فى بث روح التخاذل بين المشركين ، بالتنازل لبعضهم عن ثلث تمر المدينة ، يكشف عن مبلغ استخفافهم بقوة أعدائهم ، واستهانتهم بخطر جموعهم التى حشدوها لقتالهم ، وهذا لا يكون إلا لتشبع نفوسهم باليقين فى التغلب عليهم ، وثقتهم بسعة العقل الذى يتولى قيادتهم .

(ثالثها) أن عدم تخاذلهم حيال هذه الجموع الزاخرة التى خفت لقتالهم ، وقلة اكترائهم لإجماع قبائل العرب واليهود على استنكار ما هم عليه ، يبين عن إيمانهم الراسخ بأن ما هم عليه

هو الحق ، وأن ما عليه خصومهم هو الباطل ؛ وهو أمر يلفت نظر البسيكولوجيين ويحيرهم . فإن الخمس السنين التى قضوها فى الإسلام ، وهم من شعب معروف بضعف العاطفة الدينية ، وبعدم التعصب لأى مذهب من المذاهب الفلسفية ، يعتبر من الانقلابات الأدبية التى لم يعهد ما يشبهها فى تاريخ النفسية الانسانية . فإن هذه المدة القصيرة لا تكفى لأن تحمل نفوس جماعة قليلة العـدد للاستماتة فى الدفاع عن عقيدة ، والاستشهاد فى سبيلها ؛ لا سيما وهـذه الغارة ظهرت فيها الحمية الجاهلية كاشرة عن أنيابها ، معتزمة أن تخوض غمرة حرب ماحقة لا رحمة فيها ولا هوادة . فالوقوف حيال هذا التوثب الجنونى لا يشعر بالشجاعة البالغة أقصى حدودها فحسب ، ولـكن يشعر بنزعة من التضحية لا توجد إلا فى أدوار الانتقالات الذريعة فى تاريخ الاجتماع البشرى . فـكل متأمل فى موقفى هاتين الطائفتين وفى الروحين اللتين تقودهما الى التناحر ، كان يحكم لأول وهلة أن هـذه الطائفة القليلة تضحى بنفسها فى سبيل عقيدتها ، فان قدر لها النصر بورك لها فى وجودها ، وثبتت عقيدتها ، وآلت إليها الدولة فى نهاية الأمر .

(رابعها) أن ثبات جماعة المسلمين إزاء هذه الـكارثة الفادحة ، وهم من بيئات مختلفة ، ومتأثرون بأحقاد قديمة لا تزال صورها حية فى نفوسهم ، يدل على مبلغ قوة الرباط الاجتماعى الذى كان يجمعهم . فأهل يثرب كانوا من الأوس والخزرج وهما قبيلتان كانتا فى حالة تناحر منذ عشرات من السنين ، وفى حالة نزاع مع القبائل اليهودية التى كانت قريبة منهم ، ومعهم بضع عشرات من أهل مـكة آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهاجروا معه فرارا بدينهم وحياتهم ، ولم يتوقع أهل يثرب ولا أحد ممن كانوا معهم أن يصبحوا فى يوم من الأيام هدفا لمجموعة من القبائل يُرى ببداهة العقل أنهم لا يقوون عليها ، أفلا يكون ثباتهم على ترابطهم حيال هـذه النازلة دالا دلالة لا تقبل النقض على قـوة الرابطة التى كانت تجمع بينهم ، قوة لا توجد وسيلة فى الأرض تستطيع أن تحلها أو أن تضعف من استحكامها ؛ وأية وسيلة أفعل من هذه الوسيلة وهى أن تتألب أقوى القبائل العربية عليها ، يقودها قواد مشهورون بسعة الحيل فى إدارة المعارك ، وفرسان معروفون بشدة البأس فى مجالدة الأبطال ، والصـبر على الأهوال ؟

(خامسها) أن اليهود الذين تخيروا أن يجعلوا البلاد العربية دار هجرتهم ، كان لهم يد قوية فى حمل المشركين على التألب على المسلمين حرصا على طمأنينتهم ، وسلامة وجـودهم ، ولو كانوا أبعد نظرا لساعدوا المسلمين على التغلب على الجاهليين ، لأن الاسلام بما جاء به من سعة الصدر ، وحماية الضعفاء ، والوفاء بالعهد ، كان أجدى عليهم من سلطان أهل الشرك . وقد تبين ذلك فيما عاملهم به من العـدل والـكرم بعد أن دالت له الدولة ، فبدل أن يحفظ عليهم ما قاموا به من التأليب عليه فى عهد تـكونه ، وصى بالإحسان اليهم والبر بهم وبسائر أهـل الـكتب السماوية ، فـكان وجوده رحمة لهم .

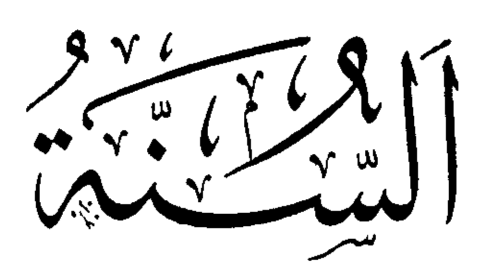
وإننا ننبه الى هـذا هنا تبريرا لما قام به النبي صلى الله عليه وسلم بعد هـذه الوقعة من إجلاء من بقى منهم عن حصونهم ، دفعا للغوائل التى تتطرق الى جماعة المسلمين من ناحيتهم ، وهذا حق مشروع لكل جماعة تود أن تنال نصيبها من الوجود ، ما دامت لا تضمر لجماعة سخيمة نفسية ، ولا تصدر فيما تعمله عن العصبية الجاهلية .

(سادسها) لما أشار سلمان الفارسى رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، لم يتردد فى الأخذ برأيه ، فأمر بحفره وساعد فيه بنفسه ، فضرب أكمل الأمثال للتعاون الفعلى بين القيادة العليا والجيش ، وهو عمل خطير لم يسبق اليه ، وخطورته تبدو من ناحية أدبية أخرى وهـو عدم التورع من الأخذ بما ثبت نفعه ولو نقلا عن المشركين . وهو من ناحية ثالثة يسوغ التجديد بل يحتمه ما دامت حاجة الجماعة تستدعيه . وقد سار أصحاب النبى وجميع من جاءوا بعدهم على هذا السمت ، فنقلوا كلما رأوه من الأمور النافعة فى الجماعات التى احتكوا بها ، ولم يدعوا العلوم والفلسفة حتى ما كان منهما مهجورا فى بطون الكتب الأجنبية ، فكلفوا بها يهودا ونصارى ومجوسا من عرفة اللغات قاموا بترجمتها وإذاعتها ، فكان ذلك سببا فى تخويل المسلمين زعامة العلم والمدنية فى الأرض قرونا طويلة ، وفى الاكبار والإعجاب الذى يحيط به المؤرخون العالميون تاريخهم الحافل بعظائم الأمور ؟

محمد فريد وجدى

بلاغة الاعتذار

روى أبو العيناء محمد بن القاسم الهاشمى قال : كان أحمد بن يوسف الكاتب قد تولى صدقات البصرة (أى جمع زكاة أهلها) ، فجار فيها وظلم ، وكثر الشاكى له والداعى عليه . ووافى باب أمير المؤمنين زهاء خمسين رجلا من جلة البصريين يشكون منه . فعزله المأمون وجلس لهم مجلسا خاصا ، وأقام احمد بن يوسف لمناظرتهم (وهو المتهم نفسه) . فكان مما حفظ من كلامه أن قال : يا أمير المؤمنين لو أن أحدا ممن ولى الصدقات سلم من الناس لسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فان أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » فأعجب المأمون بجوابه وخلى سبيله .



الشفاعة عند الله يوم القيامة

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقولون : لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا ! فيأتون آدم فيقولون : أنت الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا عند ربنا ، فيقول : لستُ هُنَاكُمْ ، ويذكر خطيئته ، ويقول : ائتوا نوحا أولَ رسول بعثه الله ، فيأتونه ، فيقول : لستُ هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا إبراهيم الذى اتخذه الله خليلا ، فيأتونه ، فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئته ، ائتوا موسى الذى كلمه الله ، فيأتونه ، فيقول : لست هناكم ، فيذكر خطيئته ، ائتوا عيسى ، فيأتونه ، فيقول : لست هناكم ، ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتونى ، فأستأذن على ربى ، فاذا رأيته وقعت له ساجدا ، فيدعنى ما شاء الله ، ثم يقال لى : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، وقل يسمع ، واشفع تشفّع ؛ فأرفع رأسى فأحمد ربى بتحميد يعلمنى ، ثم أشفع ، فيحد لى حدا ، ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجدا مثله فى الثالثة أو الرابعة حتى ما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن » وكان قتادة يقول عند هذا : « أى وجب عليه الخلود » . رواه البخارى فى كتاب الرقاق .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معنى الحديث إجمالا . (٢) بيان معنى الشفاعة عند الله يوم القيامة ومن يستحق أن يشفع . (٣) بيان معنى خطيئة الأنبياء التى وردت فى الحديث .

(١) روى البخارى أيضا هذا الحديث فى تفسير سورة البقرة ، فقال : « يجتمع المؤمنون يوم القيامة » فالمراد بالناس هنا المؤمنون الذين كانوا يصدقون بالرسل ويتبعونهم فى هذه الحياة الدنيا . أما الكافرون الذين أشركوا مع الله غيره فقد ورد فى الصحيح ما معناه أنه ينادى مناد لِتتبعْ كل أمة معبودها ، ويؤتى لكل أمة بما كانت تعبده فيكون إماما لها يقودها الى النار . أما المؤمنون الذين صدقوا بالله ورسله فهم الذين يذهبون الى الرسل ليشفعوا لهم عند ربهم فى فصل القضاء . فقد ثبت أن الناس يصيبهم ذهول عظيم يوم القيامة

كما قال تعالى: «إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم ترونها تَذْهَلُ كلُّ مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى». وورد في الصحيح ما معناه أن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل يحشر الناس عرايا؟ فقال لها: نعم، فقالت كيف يختلط النساء بالرجال وهم على هذه الحالة؟ فقال لها: الأمر أخطر مما تظنين، لأن الناس فى ذلك الوقت يكونون فى شغل عظيم وهم كبير، كل واحد مشغول بنفسه، فلا يعرف الوالد ولده، ولا الولد أباه من شدة الذهول والهول. نعم إن بعض المؤمنين العاملين يكونون بمنجاة من ذلك الهول العظيم، كما ورد فى الصحيح أيضا، ولكن السواد الأعظم من الناس لا ينجون من ذلك الهول وإن تفاوتت حالتهم شدة وضعفا.

وقوله: «فيأتون آدم فيقولون أنت الذى خلقك الله بيده الخ»: أجمع المسلمون على أن الله تعالى منزه عن الجارحة، فليست له يد تشبه يد عباده، بل هو سبحانه منزه عن جميع المواد «ليس كمثله شيء»، وأنه سبحانه خالق لجميع الموجودات، سواء كانت مادية أو مجردة عن المواد، وسواء كانت إنسانا أو حيوانا أو جمادا، وأنه سبحانه هو مصدر لجميع الكائنات باتفاق العقلاء الذين عرفوا معنى الألوهية وما تستلزمه من الكمال. فقوله فى الحديث: «أنت الذى خلقك الله بيده» معناه: أنت أول آثار قدرة الله تعالى من النوع الإنسانى؛ فاليد معناها هنا القدرة الإلهية. وأما من يقول إن الله خلقه بيد لا نعرفها فهو متفق مع الذين ينزهون الله تعالى عن المادة والجارحة، ولكنه يقف من أمثال هذه الآيات موقف الذى لا يعرف المراد منها تورعا عن الخوض فيما لا يكلفنا الله معرفة حقيقته. ولكن مثل هذا الرأى قد لا يلتقى مع صراحة القرآن الكريم ودلالته البليغة على كل معنى يريد التعبير عنه، وما دامت اللغة العربية تتفق مع التأويل فمن الحسن أن يحمل كلام الله على هذا التأويل. وظاهر أن معنى القدرة يصح التعبير عنه لغة باليد، لأن آثار القدرة تظهر على اليد، فمعنى يد الله قدرة الله.

وقوله: «لستُ هُناكُمْ» معناه أن هذا المقام ليس لى بل لغيرى. فهذه العبارة كناية عن أن منزلته دون المنزلة المطلوبة. ولا يخفى ما فى ذلك من تواضع الرسل وخوفهم من ربهم العليم القدير.

وقوله: «ائتوا نوحا أول رسول الخ»: فى ذلك إشكال وهو أن قبل نوح رسل، وهم آدم على الصحيح، وشيث، وإدريس. وقد أجاب بعضهم بأنهم كانوا أنبياء لا رسلا، ولكن هذا الجواب ليس بشيء، لأن الله تعالى قد خاطب آدم فقال له: «اسكن أنت وزوجك الجنة» الآية بطريق الوحى الصريح، وفى هذه الحالة يجب على آدم أن يبلغ رسالة ربه الى زوجه، وليس من المعقول أن يتناسل آدم ذرية بدون أن تعرف ربها، فلا بد من أن يرسل اليهم آدم

ليعلمهم كيف يعيشون . وأما شيث فقد ورد أنه كان مرسلا فى حديث صححه ابن حبان . وكذلك إدريس ، فانه ورد أنه هو إلياس .

والذى يظهر لى فى الجواب : أن نوحا كان أول رسول ناضل قومه ، ومكث يدعوهم الى عبادة الله ألف سنة إلا خمسين عاما ، ويحتمل من قومه كل محنة وشدة . أما آدم وشيث وإدريس فان رسالتهم كانت مقصورة على عدد معين ، ولم يلاقوا شيئا مما لاقاه نوح ، فلذا صح بأن يعبر عنه بأنه أول رسول .

وقوله : « حتى ما يبقى فى النار إلا من حبسه القرآن » : قد فسر قتادة معناه بقوله : « أى وجب عليه الخلود » ، وظاهر هذا التفسير صريح فى أن النبى صلى الله عليه وسلم يشفع فى الكبائر ، إلا اذا أريد من الخلود طول المكث كما صرح به القرآن فى قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها » فالخلود هنا طول المكث ، لأن القاتل ليس بكافر على التحقيق ؛ وعلى هذا فتكون الجرائم المتعلقة بحقوق العباد لا يشفع فيها الرسول . نعم قد يقال فى الجواب إن الله سبحانه يرضى أصحاب الحقوق فيسامحون بشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم .

(٢) أما الشفاعة فمعناها فى اللغة السؤال فى التجاوز عن الذنوب والجرائم ، والمشفع بفتح الفاء هو الذى تقبل شفاعته ، والمشفِّع بكسر الفاء هو الذى يقبل الشفاعة . وقد تطلق الشفاعة لغة على كلام الشفيع للملك فى حاجة يسألها لغيره . وتطلق الشفاعة أيضا على الطلب من الغير ، يقال : شفع اليه فى أمر ، طلب اليه أن يفعله ؛ ويقال شفع لى يشفع شفاعة ؛ وتشفع طلب لى كذا . ولا يخفى أن المعنى الأول للشفاعة وهو السؤال فى التجاوز عن الذنوب والجرائم فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة يصح أن يراد منه الشفاعة عند الله تعالى ، لأنه عبارة عن الدعاء بأن يتجاوز الله سبحانه وتعالى عن بعض ذنوب عباده الذين يستحقون الشفاعة . فالشفاعة فى قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » معناها الدعاء . وقد نقل ذلك صاحب لسان العرب عن المبرد وثعلب .

وقد ذكر فى حواشى المواقف أن الشفاعة تطلق فى العرف على دعاء الرجل لغيره كما يدل عليه اشتقاقه من الشفع ، فكأن المشفوع له فرد يجعله الشفيع شفعا بضم نفسه اليه . وهذا المعنى يناسب قول المبرد وثعلب من أن الشفاعة فى الآية معناها الدعاء . وعلى كل حال فالغرض إنما هو تنزيه الله سبحانه عن أن يقبل التأثر الذى تحدثه الشفاعة عند الناس من تغيير إرادة أو تحويل عن أمر الى آخر .

هذا وقد أجمع المسلمون على ثبوت أصل الشفاعة المقبولة له عليه الصلاة والسلام ، لا فرق بين المعتزلة وغيرهم فى ذلك ، ولكن أهل السنة يقولون إن الشفاعة تكون لأهل الكبائر فى إسقاط العقوبة عنهم . أما المعتزلة فإنهم يقولون إن الشفاعة إنما هى لزيادة الثواب

لا لدرء العقاب ، بناء على قولهم إن الكبائر لا تمحوها إلا التوبة . فمن مات مصرا على كبيرة يكون جزاؤه الخلود فى النار . وقد عرفت مما قدمنا لك غير مرة أن الشريعة الاسلامية تنافى اعتقاد ذلك ، لأن الله سبحانه لا يظلم الناس شيئا ، ولا يضيع الحسنات من أجل سيئة من السيئات ، قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

وقد استدل المعتزلة على أن الشفاعة لا تنفع أهل الكبائر بقوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة » فهذه الآية صريحة فى أن الشفاعة لا تنفع المجرمين وأهل الكبائر يوم القيامة . وقد أجيب عن هذا بأن الآية واردة فى قوم معينين وهم اليهود ؛ قال تعالى : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم على العالمين . واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا الخ » . وقد أجيب عن ذلك بأن الضمير فى قوله تعالى : « ولا تنفعها شفاعة » راجع الى النفس الثانية وهى نكرة فى سياق النفى فتكون عامة وإن كان سبب نزولها اليهود . وعلى هذا فالشفاعة لا تنفع المجرمين والكافرين مطلقا ، إذ المعتبر فى دلائل القرآن إنما هو عموم اللفظ لا السبب الخاص .

والجواب عن هذا أن التخصيص فى الآية لا بد منه ، إذ معناها أن الشفاعة لا تنفع هؤلاء اليهود فى ذلك اليوم المخصوص ، فاذا قلنا إن الشفاعة تنفع فى زيادة الثواب والأجر كما يقول المعتزلة فان ذلك يتنافى مع عموم الآية أيضا ، لأن زيادة الثواب فيه نفع عظيم ، فلا بد للمعتزلة من أن يخصصوا عدم النفع بهذا الحال الخاص . وأيضا ماذا نصنع فى قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » ؟ أليس فى هذا الاستثناء دلالة صريحة على أن الشفاعة عند الله تكون بإذنه ؟ ثم ماذا نصنع بالأحاديث الصحيحة الصريحة الواردة فى أن النبى صلى الله عليه وسلم يشفع فيمن يستحق النار ؟ وماذا نصنع بقوله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الذى معنا : « ثم أخرجهم من النار وأدخلهم الجنة بشفاعتى مرارا وتكرارا » ؟ لا شك أن الإقدام على إنكار الشفاعة والحكم بإلغاء هذه الأحاديث الصحيحة جرأة على الله ورسوله لا تليق بأولى العلم .

(٣) أما الكلام على عصمة الرسل فقد بيناه فى بعض أعداد المجلة الماضية . والذى نريد أن نقوله الآن هو أن المسلمين يؤمنون إيمانا جازما بأن الله سبحانه لا يرسل رسلا إلا إذا كانوا بعيدين عن كل ما يخل بمقامهم الكريم ويتنافى مع تبليغ رسالتهم واحترامهم عند الناس . وكل ما ورد فى القرآن من أن بعض الأنبياء قد ارتكب ذنبا فانه إما أن يكون خطأ كما هو الحال فى قصة موسى وقتله شخصا بلطمة ، فإن موسى لا يقصد قتله طبعا ؛ وإما أن يكون فى نظر فاعله خطيئة وليس كذلك كما قال نوح فى بيان خطيئته : إننى قد دعوت على أهل الأرض ، وإننى سألت الله تعالى أن ينقذ ابنى . وظاهر أن الأمرين لا خطيئة فيهما ، لأن قومه

قـد استحقوا ذلك الاغراق حتما سواء دعا أو لم يدع ، وأنه لا مانع من الطلب من الله تعالى المرة بعـد المرة ، فانه تعالى لا يسد بابه عن الداعين مطلقا ؛ ولـكن عظم مقام نوح وخـوفه من ربه قد أخجله بسبب هذين الأمرين . وأما آدم فالأمر فيه معروف وهو أن معصيته هذه ترتب عليها إيجاد النوع الانسانى وما يكون عليه من عصيان الله والرجوع اليه للتوبة وقبول هذه التوبة . وعلى هذا القياس فالرسل فى نظر الشريعة الاسلامية منزهون عن كل جريمة تخل بمقامهم الـكريم . على أنه قد ثبت أن سيدنا محمدا صلوات الله وسلامه عليه هو خير الرسل وأكرمهم عند الله تعالى ، فلهذا كان هو صاحب الشفاعة العظمى ؟

عبد الرحمن الجزيرى

عاطفة بعاطفة

روى الزبير بن بكار قال : كان المسوَّر بن مخرمة ذا مال كثير فاسرع فيه على إخـوانه فذهب . فسأل امرأته ، وكانت موسرة ، فمنعته وبخلت عليه . فخرج يريد بعض خلفاء بنى أمية منتجعا (أى طالبا معروفه) .

فلما كان ببعض الطريق نزل ماء يقال له بلاكث . فقال له غلامه : كيف يقال لهذا الماء ؟ قال : يقال له بلاكث . فقال :

بينما نحن من بلاكث بالقا ع سراعا والعيس تهـوى هويا
خطرت خطرة على القلب من ذكـراكِ وَهْناً فما استطعت مضيا
قلت لبيك إذ دعانى لك الشو قُ ، وللحاديين كُرَّا المطيا

فقال المسور لغلامه : هن بُدن إن لم تكرها رواجع ! قال غلامه : قـد أشرفن على أمير المؤمنين . فقال له المسور : هن بدن إن لم تكرها رواجع ! فرجع ودخل المصلى ليلا فوجد رجال قريش حلقا يتحدثون . فقالوا له : زاد خير . فأجابهم : زاد خير ، ثم انصرف الى داره . فقالت له امرأته : زاد خير . فأنشدها الأبيات التى كانت سبب رجوعه من وسط الطريق . فقالت : كل ما أملك فى سبيل الله إن لم أشاطرك مالى ! فشاطرته مالها جزاء عاطفته .

قوله : هن بُدن ، أى هن من النوق التى تنحر بمكة إن لم ترجعها . وبدن جمع بدَنة . وزاد خير : كلمة ترحيب للراجع من سفر .

دراسات في القرآن الكريم

القرآن والمفسرون

مسارعتهم الى القول بالنسخ فى القرآن

قال الله تعالى : « والذين يُتَوفَّون منكم ويذَرون أزواجا وصيةً لأزواجهم متاعا الى الحول غير إخراج ، فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف ، والله عزيز حكيم » :

يقتصر كثير من المفسرين فى تفسير هذه الآية على القول بأنها منسوخة ، فيقولون فى بيان المعنى المنسوخ : كان الحكم فى ابتداء الاسلام أنه إذا مات الرجل لم يكن لزوجه من ميراثه شيء إلا النفقة والسكنى مدة سنة ، وكانت عزيمة عليها فى الصبر عن التزوج ، ولكنها كانت مخيرة بين أن تكمل السنة فى بيت زوجها أو تخرج منه قبل تمامها ، غير أنها متى خرجت سقطت نفقتها ؛ ويكون جملة ما فى الآية من تشريع هو أمرين اثنين : أحدهما وجوب الوصية على الأزواج ، والثانى وجوب الاعتداد حولا كاملا . فأما الوصية فيبنون نسخها على أن القرآن قد ورّث الزوجة فجعل لها فى حالةٍ الربع وفى أخرى الثمن ؛ ثم إنه الى هذا قد ورد فى السنة أنه لا وصية لوارث ؛ فمجموع القرآن والسنة قد نسخ وجوب الوصية بالنفقة والسكنى . وأما وجوب الاعتداد حولا كاملا فيجعلون نسخه بآية « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ... »

على هذا التأويل يقتصر كثير من المفسرين . وبعضهم يذكر فى الآية وجهين آخرين ، يعزى أحدهما « لمجاهد » ، ويعزى الآخر « لأبى مسلم الأصفهانى »

فأما مجاهد فيرى أن الآية ليست منسوخة ، بل يجعل للمرأة فى الاعتداد حالتين : إحداهما أن تختار الإقامة فى بيت زوجها حولا ، وأن ينفق عليها من مال زوجها مدة ذلك الحول ، وفى تلك الحالة تكون عدتها حولا كاملا ، وهو ما قررته تلك الآية التى معنا . والحالة الثانية أن تختار الخروج من بيت زوجها قبل الحول وترد الإنفاق عليها من ماله ، وفى تلك الحالة تكون عدتها أربعة أشهر وعشرا ، على ما قررته الآية الأخرى .

وأما أبو مسلم فرأيه فى الآية أنه لما كان الحال فى الجاهلية أن الأزواج يوصون لأزواجهم بالنفقة والسكنى حولا كاملا ، وكان يجب على المرأة أن تعتد مدة ذلك الحول ، فقد نزلت هذه الآية لتبين فقط أنه ليس بواجب أن تقيم كل الحول وأن تعتد به ، بل المدة هى الأشهر الأربعة والثلث . وعليه فمجمل هذا التأويل إنما هو إبطال ما كان عليه الجاهلية لابيان مدة العدة للمتوفى عنها زوجها ، فان ذلك قد تكفلت به الآية الأخرى .

هذا محصل ما ذكره المفسرون فى الآية من تأويل . وإنا قبل أن نبدأ بما نراه صحيحا فى هذا لا بد أن نعرض لبيان ما يرد على ما ذكروه من تأويلات فى الآية :

أما أولاً : فإننا حتى مع مجاراتهم لما ذكروه فى الآية من إعراب ، لا نجد لها من دلالة إلا على وجوب الوصية على الأزواج لأزواجهم ، فإنهم قد جعلوا التقدير فى حال ما يكون لفظ الوصية مرفوعا « فعليهم وصية » ، وجعلوا التقدير فى حال النصب فليوصوا وصية ، وليس فيها بعد ذلك ما يفيد وجوب الاعتداد حولا كاملا ، لا بطريق العبارة ، ولا بطريق الإشارة ، ولا بأى وجه من وجوه الدلالات ، فلا فى جملة من جملها ولا فى مفرد من مفرداتها ، بل ولا فى حرف من حروفها يمكن أن تظفر بما يفيد ذلك من قريب أو بعيد . وعلى العموم فسواء نظرنا الى ما قدروا أو لم ننظر إليه فليس فى لفظ من ألفاظ الآية ما يدل على وجوب الاعتداد حولا كاملا كما يقولون ، لا بالمطابقة ولا بالالتزام ، لا بالحقيقة ولا بالمجاز ، لا بالمنطوق ولا بالمفهوم ؛ وإلا فقل لى بربك أى لفظ من ألفاظها له فى تصريح أو تلويح دلالة على وجوب العدة حولا : أفى لفظ وصية ، أم فى لفظ متاع ، أم فى لفظ حول ؟ إنه لكما ترى ليس فى واحد منها دلالة على شىء من ذلك ؛ وإن كانت الشبهة قد قامت فى لفظ الحول فذلك ما لا يصح ، إذ لفظ الحول قد ذكر مجرورا بالى متعلقا بمتاع ، مما قد أفاد صراحة وتنصيصا أن الحول ظرف المتاع وليس ظرفا للعدة . من هذا يتضح لك جليا أن الآية ليست من تقرير عدة بأى مدة ، فضلا عن حول أو نصف حول ، فى ورد ولا صدر .

وأما ثانيا : فإنه بمقتضى إعرابهم الآية تكون الوصية واجبة ؛ ومن بيانهم للمعنى الذى كان معمولا به فى صدر الاسلام تفهم أن الاعتداد قد كان حولا كاملا ؛ ومن مجموع الإعراب وبيان المعنى تفهم أن الاعتداد حولا كاملا إنما توجبه الوصية . وعلى هذا فنحن نسائلهم : ماذا كان يكون الحال قبل نسخ الآية لو أن الزوج ترك الوصية ؟ أكانت تكون العدة مدة حول واجبة كما لو أوصى ؟ إن كان كذلك فلا معنى إذن لذكر الوصية فى الآية ، أم كانت المدة تكون حينئذ غير واجبة والمرأة أن تتزوج قبل تمام الحول وفى أى جزء منه ؟ إن كان كذلك فالأمر يكون أكثر إبهاما وأعظم إشكالا .

وأما ثالثا : فانه قد انفهم من كلامهم أنهم قد بنوا النسخ لوجوب النفقة والسكنى على مجموع

أمرين : على أن القرآن قد نص على كون المرأة من الورثة ، وعلى أن السنة قد نصت على أن لا وصية لوارث ؛ فبمجموع الكتاب والسنة تكون الأزواج ممن لا تصح لهم الوصية ، مع أن متاع الحول بالنفقة والسكنى مترتب على الوصية ؛ وبنوا نسخ العدة حولا كاملا على آية التربص أربعة أشهر وعشرا .

هذا قولهم ؛ وإنه لمردود عليهم ، لما أن الوصية فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا وصية لوارث » إنما أريد بها وصية خاصة ، وهى أن يوصى إنسان لأحد الورثة بجزء من التركة ؛ أما الوصية فى الآية التى معنا فليست بذلك المعنى ، بل المراد منها العطف والرحمة بالمرأة ، والمرأة أحد الضعيفين ، وقد كسر الى ذلك خاطرها بموت عشيرها وعائلها ؛ المراد العطف والرحمة بإمتاعها حولا بالنفقة والسكنى ، والنفقة والسكنى ليستا جزءا من التركة . وأما قولهم إن الاعتداد حولا قد نسخ بالآية الأخرى ، فقد علمت مما قدمنا أنه ليس فى الآية ولا فى أى آية أخرى من القرآن الكريم ما يدل على أن مدة العدة كانت حولا ، وإذا لم يكن هناك منسوخ فليس هناك إذاً ناسخ .

وأما رابعا : فإن المقرر المعروف أن العدة أمر ذو بال لما يرتبط به من عظيم الشؤون ، وكلما كان التشريع ذا خطر وبال كانت العبارة فى تشريعه أوفر بيانا وأشد وضوحا ، وكان من الحكمة أن تكون العبارة أبعد به عن توقفه على قيود ، وأنأى به عن الارتباط بشروط ، حتى لا ينفتح أمام المكلف باب الاعتذار عن تثاقله فى الامتثال بعدم قيد ، أو التعلل بتخلف شرط . لهذا تقرأ قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » الآية ، تقرؤها فتجد أنها فى دلالتها على الغرض بينة واضحة ، ثم هى لم تربط وجوب الاعتداد بأى شىء آخر ، بل جعلت التربص مطلوبا منهن خاصة دون أن يتوقف على شىء ، أو أن يرتبط بشىء ، حتى الرقابة عليهن لم تجعلها لأحد من الناس مهما اشتدت علاقته بهن ولو كان أبا أو أما ، بل وكلت حراستهن لأنفسهن ، فأنفسهن هى الرقيبة على أنفسهن ، حتى تبت خيوط الأعذار ، وتغلق أبواب التعللات . انظر الى قوله : « يتربصن بأنفسهن » ، ثم انظر بعد ذلك الى إيثار مادة التربص على مادة الانتظار ، لما أن التربص انتظار فى تشوف ويقظة ، ففى التشوف لنهاية مدتها الارتقاب لما أحل الله والانشغال عما حرم الله ، وفى اليقظة الحيطة والحذر ، فكأنهن مأمورات فى الآية بدقة الحيطة وشدة الحذر ، والتحرز عما يخل فى هذه المدة بما كلفن به من صيانة أنفسهن وحفظهن لحدود الله . اقرأ هذه الآية تجد هذا الذى بيناه لك ، ثم اقرأ الآية التى معنا تجدها بعيدة كل البعد عن إفادة العدة على أى وجه من وجوه الدلالات . وقد عرفت أن العدة من الشؤون ذات الخطر لما يرتبط بتحقيقها من عظيم الآثار ، وبتركها من كبير الشرور ومشاكل المجتمع ، مما يستدعى الحديث عنه فى بيان تشريعه وضوح العبارة وجلاء الدلالة .

وأما خامسا : فإن النسخ لمن أول ما هـو ذو شأن خطير ، لأن حاصله ترك العمل بحكم من أحكام الله الى العمل بحكم يخالفه على أنه من أحكام الله ؛ وما ذلك شأنه فلا ريب أنه لا يقدم عليه إلا فى تأن متأن وتمهل متمهل ، مع الاستناد الى قاطع من الأدلة ليس فى أفقه من سحائب الشبه لا الوطفاء منها ولا الجهام ، ولا فى ساحه من غبار الاحتمالات لا المثير منه ولا القتام . وأنت ترى أنه ليس معنا فى هذه الآية دليل على النسخ حتى ولا الظنى الراجح فضلا عن اليقينى القاطع ؛ كما أنه ليس هناك أوهى داع لخطور النسخ فى الآية على البال ، فإنه ليس من تعارض بين الآيتين ولا شبه تعارض بينهما حتى يحتال لدفع التعارض بكون إحداها منسوخة ، فإن إحـدى الآيتين نص صريح فى تقـدير العدة بأربعة أشهر وثلث ، والأخـرى نص صريح فى الاسترحام للمرأة بإمتاعها حولا بالنفقة والسكنى .

وأما سادسا : فانه قد كان من أول ما يقتضيه النظام فى التشريع حتى عند الناس ، فضلا عن بارئهم الحكيم ، أن يكون المنسوخ أولاً والناسخ ثانيا ، حتى لا يكون المنسوخ دائما أحضر فى ذهن التالى والسامع من الناسخ مع أن الحكمة تقتضى النقيض ، وحتى يكون ترتيب التلاوة وفق ترتيب النزول .

الى هنا قد فرغت مما أردت أن أورده من الإشكالات على هـذا التأويل . وإذا كان كذلك فينبغى أن يسلك فى تأويل الآية سبيل يتفق مع أسلوب اللغة ، ويساير ما جاء به القرآن من مكارم وآداب ، ويجارى ما يجب من تثبت وتأن فى الحكم على أحكام الله .

وتأويل الآية الذى يحقق ذلك كله ، هو أن الله تعالى هو الذى يوصى أى يسترحم ذوى الشأن من أولياء الميت ومن حكام وفقهاء للمرأة المتوفى عنها زوجها أن يمتعوها بالانفاق عليها من مال زوجها حولا كاملا ، وأن لا يخرجوها من بيته بل يبقوا عليها فيه الى نهاية الحول ، على أن يكون البقاء فى بيت زوجها والخروج منه موكولا لإرادتها ، حتى لا يخرج هذا العطف وتلك المواساة بالانفاق والسكنى حولا عن كونه رحمة وجبرا الى كونه إكراها وعضلا ، فقد يكون خروجها قبل تمام الحول إنما هو للزواج ما دامت قد أتمت مدة العـدة أربعة أشهر وعشرا ، فلو لم يجعل لها الخيار فى الخروج لعاد العطف إيذاء . والزواج هو المعنىّ بالمعروف فى قوله تعالى : « فيما فعلن فى أنفسهن من معروف » ؛ فالله تعالى يسترحم الأولياء للنساء مع الاحتياط لتلك الرحمة مما يقلبها مضارة وإيذاء ، باعفائهم من التبعة إن هن خرجن وفعلن فى أنفسهن المعروف ، حتى لا يعضلوهن بحجة إمتاعهن إذا لم ينص على نفى الجناح عن الأولياء فى ذلك . وعلى الجملة فالآية ليس لها صلة بتقرير عدة بأى مدة على أى وجه من وجوه الدلالة ، بل الآية إنما تدعونا الى الرحمة بهؤلاء الضعفاء بأصل خلقتهن ، وقد زادت الحوادث فى ضعفهن بهيض أجنحتهن ، واستلاب العوائل والحوامى لهن ... إنما تدعونا الى الابتعاد عن الغـدر

بعهود الراحلين ، وعن الغلظة المفضية الى عدم المبالاة بمصاب المصابين ، وعن القسوة على المكلومين . وإنه ليس من شك فى أن المرأة بموت زوجها هى أوفر من جميع أقاربه نصيبا من الهم ، وأوفاهم حظا فى الحزن ، وأشدهم بعده وحشة ، وأعمقهم جرحا ، على قدر نصيبها فى حياته من خيره وأنسه . لهذا فكل ذى صلة بالميت تكون الزوجة أولى منه بالتعزية والمواساة ؛ وواضح أنه إذا انقطع عنها بموت زوجها ما اعتادته من نفقة فى حياته ، وخرجت عما اعتادته من سكنى معه ، كان فى ذلك تعميق لجرحها ، وتكبير لمصابها ، وإلهاب لحزنها ؛ فاذا أبقى عليها أولو الشأن ممن للميت من أولياء ومن حكام وفقهاء ، إذا أبقوا عليها فى بيت زوجها ، وأبقوا كذلك على ما اعتادته من نفقة ، كان فى ذلك من تعزيتها ما يطفىء من حزنها ، ويخفف من مصابها ؛ كما أن فى ذلك من ناحية أخرى إبرازا لأولياء الميت فى معرض الوفاء والبعد عن الغدر بعهد راحلهم ، وإظهارا لهم فى مظهر البذل وتجنب الشح .

على ذلك لا تكون الوصية فى الآية مصدرها الميت كما يزعمون ، إنما يكون مصدرها هو الله تعالى ، أى أوصيكم يا أولى الشأن للأزواج اللاتى توفى منكم أزواجهن وصية ، وأسترحمكم لهن رحمة . أو يكون لفظ الوصية معمولا لفعل أمر من الوصية موجه الى أولى الشأن بمعنى الرحمة وزيادة الخير المسدى اليهن . وأما على الرفع فيكون المعنى : عندكم وفى ذمتكم وصية وعهد لزوج من توفى منكم . وإنما لم نجعل مصدر الوصية فى الآية هم الأزواج المتوفين على أن تكون واجبة عليهم كما هو مقتضى ما قدروه فى إعرابها رفعا ونصبا ، لأنه مع كون الآية ليست نصا فى الإسناد الى الأزواج المتوفين ، فان المتوفى ليس محلا للتكليف ، فكيف يفهم أن الأزواج إذن هم المكلفون بالوصية ، وأنها واجبة عليهم ؟ والتخلص من ذلك بأن فى الكلام مجاز المشارفة ، وأن المراد من المتوفى من شارف الوفاة ، غير صحيح ، لأن المشارفة ليست بالأمر المحدد المضبوط فيمكن للناس علمه حتى يتأتى لهم أن يوصوا عند مشارفة الوفاة ؛ فكم من شخص قد باغته الموت وأخذه على غرة دون أن يكون قد خطر له الموت على بال ؛ وكم من مريض ظن أنه ناج من مرضه ثم هو يفتك به ويقتله ؛ وكم من مريض ظن أن مرضه قاتله ثم نجا منه فعاش طويلا طويلا . . . وعلى هذا فالموصى هو الله ، أو هو تعالى الآمر لأولى الأمر بالوصية . والموصَى به هو تمتيعهم حولا بالإنفاق وعدم الاخراج من بيوت الأزواج مدة ذلك الحول ؛ والمطالبون بذلك هم المخاطبون فى قوله « منكم » وهم آل الميت ، وأهل الحل والعقد من حكام وفقهاء .

هذا هو التأويل الذى ينبغى أن تحمل عليه الآية ، لما أن شواهد الحق فيه واضحة عالية ، ومعالم الصواب بينة بادية .

أما أولاً : فلما قدمنا من إشكالات ومبطلات لما ذهب اليه المفسرون فى تأويل الآية ، ذلك الوجه الذى أفضى الى الحكم عليها بأنها منسوخة .

وأما ثانياً : فاننا إذا استعرضنا الآيات التى وردت فى هـذا المقام ، أى الآيات المتعلقة بالفرقة بين الزوجين على أى وجه من وجوه الفرقة : فرقة طلاق قبل الدخول أو بعده ، أو فرقة وفاة ، اذا استعرضنا ذلك نجد أنها قـد بدأت ببيان العدة على وفق أنواع الفرقة ، ثم بعد أن أتمت القول فى بيان العـدد أخذت فى بيان أنواع المتعة ؛ فـكما أنها بينت عدة المطلقة أولاً وانتظم ما تعلق بها من القول فى سلك ما تعلق بالعدد ، ثم بينت متعتها ثانيا وانتظم ما تعلق بالمتعة من القـول فيما تعلق بالمتع ، وجب أن يكون الأمر كذلك فى شأن من توفى عنها زوجها : تبين عدتها أولا ، ثم تبين متعتها ثانيا ، جريا مع النظام الذى رسمته آيات القرآن فى هذا الشان . فآية « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ... » المنتظمة فى آيات العدد ، لبيان العدة ، والآية التى معنا المنتظمة فى آيات المتع ، لبيان المتعة ؛ فالنظام الذى رسمته آيات هذا الموضوع تقتضى أنه لو كانت تلك الآية التى معنا من آيات العدد لوجب أن تكون فى سلك آيات العدد ؛ أما وقد انتظمت تلك الآية فى آيات المتعة فقد وجب أن تكون لتقرير المتعة ، خصوصا بعد ما عرفت أنها لا صلة لها ، بمقتضى مواد اللغة وأساليبها ، بالعدة ، لا فى جملة من جملها ، ولا فى مفرد من مفرداتها ، وخصوصا بعد أن ذكرت فيها مادة المتعة صراحة وتنصيصا .

وأما ثالثا : فإن كتاب الله قد شرع للمرأة المفارقة بالطلاق متعة ، والمتعة إنما شرعت جبراً لـكسر المرأة بطلاقها ، وأسـياً لجرحها ، وتخفيفا لآلامها ؛ وإذا كان الأمر كذلك فى شأن المرأة المفارقة بالطلاق ، فلَجبر المرأة المفارقة بالوفاة أحق وأولى ، وهى إليه أحوج وبه أجدر ؛ فلو أننا تناسينا ما تقتضيه اللغة أسلوبا ومفردات فحملنا الآية التى معنا على العدة كما يزعمون ، لخلا القرآن عن تقرير متعة للمرأة المفارقة بالوفاة ، وفى ذلك منافاة لبالغ حكمة الله ، ومناقضة لشامل عدله .

ومجمل القول فى ذلك ، أن الآية إنما أنزلت لتقرر متعة ، لا لتقرر عدة .

وأما رابعا : فإننا لو أغفلنا ما تؤديه الآية من معنى بمقتضى اللغة أسلوبا ومفردات ، فسلمنا جدلا أنها تدل على أن الحول ظرف العدة لا ظرف المتاع ، لوجب أن لا يكون القيد كما فى الآية ، أعنى قوله : « غير إخراج » ، بل كان يجب أن يكون القيد هكذا « متاعا الى الحول ما نعيهم من الخروج » ، لأنه إذا كان الحول عدة كنّ بذلك ممنوعات من الخروج لا مخيرات فيه ، لأنه ليس أحفظ لهن فى عدتهن عن أن يمسسن من إقامتهن فى بيوت أزواجهن تحت رعاية أولياء المتوفين رجالا ونساء ، لما فى خروجها من الإخلال بما يجب أن تكون عليه المرأة فى عدة ، لا سيما عدة الوفاة ، من مظـاهر الوفاء لزوجها الراحل ، ولأهـله الذين يؤلمهم أن يروها قد انفتحت عيناها نحو رجال غير زوجها ؛ والقرآن فيما يلقى فينا من إرشاد ، وما يوجه إلينا من

تهديد ، لا يقف بنا دون أعلى درجات الشرف وأسمى مراتب الكمال . ذلك من التعبير ما كان يجب أن يكون لو أن الآية كما يزعمون لتشريع العدة حولا ؛ أما والتعبير فى الآية قد جاء على ما جاء عليه ، فلا شك أنه لغير ما يزعمون ؛ ولكنه فيما هو الغرض من الآية والمقصود منها على أبلغ أسلوب وأدق تعبير فى بيانه وتحديده . ولقد علمت أن الغرض من القيد هو أن الله تعالى لما استعطف أولياء الميت على زوج ميتهم ليمتعوها حولا بالإنفاق والإقامة فى بيت زوجها ، أراد أن يكون هذا العطف وتلك المواساة بعيدة كل البعد عن أى شائبة تشوب وفاءهم لميتهم ، أو تكدر عطفهم على زوجه ، فلم يطلب اليهم سوى أن لا يخرجوها حتى يبقى لها كامل إرادتها فى الخروج وعدمه ؛ ولو كلفهم بقاءها لكان فى ذلك سلب إرادتها وخنق حريتها ، مما يقلب المتعة والعطف إكراها وعضلا ، وأذى وإيلاما . ومن هذا تدرك نواحى البلاغة فى القرآن ، ودواعى السجود لأسلوبه فيه ؛ فما من عبارة غير هذه يمكن أن يكمل بها الغرض ، ويتم بها المراد . وكما أنه لم يكلف أولياء الميت أن يمنعوها الخروج ، فهو لم يكلف النساء أن يبقين فى بيوت أزواجهن ؛ وفى ذلك أيضا دلالة واضحة على أن الحول لم يكن ظرفا للعدة ، وإلا لحظر عليها الخروج وكلفها البقاء ، ولكنه لم يوجه إليهن تكليفا ، بل وجهه الى الأولياء ، مع أن الزوجات هن المكلفات بالاعتداد .

وهناك ناحية غير هذا وذاك ، وهو أن التكليف والخطاب فى الآية لم يوجه الى النساء ، فلم يطلب إليهن شيئا ، ولم ينههن عن شىء ؛ ولو كانت الآية لتقرير العدة والعدة هن المكلفات بها ، لما وجه التكليف والخطاب إلا إليهن ، ولما وجه الى ذوى الشأن ، لأن كل نفس لا تكلف غير فعلها ، والذى هو من فعل الأولياء إنما هو الامتاع بالانفاق وعدم الاخراج .

وأما خامسا : فان قوله تعالى : « فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف » قد أفاد بطريق النص بعد استفادته بطريق الإشارة أنهن مخيرات فى الخروج وعدمه أثناء الحول ، ولو كان الحول عدة كله لما أباح لها الخروج أثناءه ، إذ أن أكمل ما تمضى عليه المرأة عدة الوفاة هو احتفاظها بمظاهر الوفاء لزوجها الراحل ، وإنما يتم لها ذلك حين تكون مدة العدة تحت إشراف آل زوجها من نساء ورجال ، إذ فى ذلك صيانتها عن تعرض وفائها للمساس برميات من نظرات راغب ، أو كلمات من خليع غير ذى حياء ؛ فانه لواضح أن أعظم ما تصان به عن ذلك هو أن تكون تحت إشراف آل زوجها ؛ ثم هى الى هذا ما دامت فى بيت الزوج الفقيد فهى مقرونة فى الأذهان بالمآتم والأحزان ، وإن ذلك لمن أقوى ما يحول عنها الأنظار ويدفع عنها الكلام . وإذا كان بقاؤها فى بيت زوجها هو أكمل حال تؤدى عليه المرأة عدتها فلو كان الحول ظرفا للعدة لما أباح لها الخروج ، بل كان يجب أن يحتم عليها البقاء به كل الحول ؛ فإباحة الخروج دليل أن الحول ليس ظرفا للعدة ، وإنما هو ظرف للإمتاع .

وأما سادسا : فان الآية قد نفت الحرج والتبعة عمن توجه اليهم الخطاب من أولياء وحكام وفقهاء فيما تفعله المرأة بنفسها إن هى اختارت الخروج من بيت زوجها على البقاء فيه ؛ والمراد بالمعروف هنا هو الزواج ومروجاته من تحسين وتجميل . وإنما حملنا المعروف على ذلك لما هو مقرر ومعروف من أن قوانين القول وقواعد الكلام أن لا ينفى الحرج عن فعل إلا إذا كان هناك ما يوهم الحرج فيه ، وليس لدينا ما يتوهم فيه حرج إلا الزواج ومروجاته التى تتقدمه من تزين وتجمل ؛ فلو كان الحول كله عدة لما نفى الحرج عمن عليهم الرقابة والاشراف على المرأة فى مثل هذا الشأن ، بل كان يجب أن يلقى عليهم الحرج ثقيلا ، والتبعة مرهقة ، إن هم تركوها تفعل شيئا من ذلك ، لأن هذا الأمر الذى سماه معروفا لو فعل أثناء العدة لكان من أفظع المنكرات ، لأنه من شر عوامل الفساد فى المجتمع ، ومن أقوى دواعى الإخلال به .

هذا ولا يفوتنى أن أنبه الى أن من شواهد حمل المعروف على الزواج ومروجاته هو أنه فى الآية الأخرى ، أعنى قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ، فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف » نص فى ذلك ، إذ قد رتب نفى الجناح عنه ، وتسميته معروفا ، على بلوغ الأجل أى انتهاء العدة ، إذ هو الذى كان محظورا قبل انتهائها ، وهو الذى كان فيه الجناح قبل بلوغ الأجل . وعليه فالمراد بالمعروف هنا هو المراد هناك .

وأخيرا فمجمل القول فى الآية أن الله يوصى ويستعطف أو يأمر أولى الشأن بالوصية والرحمة ، على وفق ما قدرنا آنفا من أنه : أوصيكم أو لتتواصوا بأزواج من توفيت أزواجهن ، كى يجبروا من كسرها ويضمدوا من جراحها ، بامتاعها حولا بالانفاق والسكنى فى بيت زوجها ، حتى لا يشعرن بتغير فى أحوالهن ولا تبدل فى عوائدهن ، وحتى لا يحسسن بغتة ، بأنهن قد صرن عائلات أنفسهن وقد كن بالأمس معولات مدللات ؛ فاذا مضى على المصاب حول كامل هان الحادث وخف الخطب بتقادم العهد وبعد الذكريات . ثم إنه تعالى ببالغ حكمته قد احتاط لتلك المواساة من أن تلد شرا أو تستتبع فسادا ، فجعل للمرأة الخيار فى الإقامة ببيت زوجها كل الحول أو الخروج أثناءه متى أتمت أربعة أشهر وعشرا ، فلم يكلف الأولياء إلا عدم الإخراج ، ونفى عنهم الحرج فيما يفعلنه فى أنفسهن من معروف ، حتى لا يتحكموا فى شأنها ويستبدوا بأمرها فيقلبوا الوصية والرحمة عضلا وإكراها . هذا ما عنته الآية ، وهى لا صلة لها بالمدة من قريب أو بعيد .

وأما ما يراه « مجاهد » فى الآية من أنها تقرر إحدى حالتين للمرأة المتوفى عنها زوجها ، وأن آية الأشهر الأربعة تقرر لها حالة ثانية ، فتكون عدتها على ما يراه مجاهد تارة حولا كاملا وهذا إن اختارت الاقامة كل الحول ببيت الزوج ، وتكون تارة أخرى أربعه أشهر وعشرا

وذلك إن اختارت الخروج وأبت الانفاق . . . أما هذا فهو كما ترى يجعل ما زاد عن الأشهر الأربعة والثلث موكولا الى اختيار المرأة ؛ وإذا كان الزائد موكولا الى اختيارهن لم يبق لكونه من العدة معنى ما دام قد تخلفت عنه صفة الوجوب ؛ وبذلك يرجع الأمر الى ما قررنا من أن العدة إنما هى أربعة أشهر وعشر . وعلى ذلك يرجع قول مجاهد الى ما أولنا به الآية من كل وجه ، اللهم إلا فى تسميته الزائد عدة حين تختار إقامة الحول كله . وعلى العموم فالذى يعنينا من رأى مجاهد هو أنه قد وافقه ما نراه فيها من أنها ليست منسوخة كما يزعمه المفسرون دون استناد الى يقين أو شبه يقين ، بل كل ما بأيديهم إنما هى ظنون متصدعة لا تنفق فيما هو دون النسخ لكتاب الله ، فضلا عن كتاب الله الخالد على مدى الأيام .

وأما ما يراه « أبو مسلم » من أن الآية تقرر أن الأزواج إذا وصوا لأزواجهم فليست الوصية ملزمة لهن باقامة الحول فى بيت الزوج بل لها أن تخرج أثناءه ، فهو يفيد أن الوصية غير واجبة على الأزواج . وأنت ترى أنها اذا كانت غير واجبة أدت الى التفرقة بين الزوجات فى المتعة ، فمنهن من يمتعن حولا وهن من ظفرن بوصية الزوج ، ومنهن من لا تمتع الحول وهن من لم يوص لهن الأزواج ؛ وحكمة الله البالغة تقتضى المساواة بينهن فى العطف والرحمة . وأما ما قررنا فى الآية فهو يقتضى المساواة بينهن . وعلى العموم فالذى يعنينا من قول أبى مسلم هو أن الآية ليست منسوخة كما يزعمه بعض المفسرين غير متحرجين لكتاب الله خطره ، ولا متهيبين له قدسه .

رب أخلصت لك عملى فاهدنى للصواب ؟

عامر محمد

فى الجليس وآدابه

قال المهلب بن أبى صفرة : العيش كله فى الجليس الممتع .

وقال سعيد بن العاص : لجليسى علىّ ثلاث : إذا دنا رحبت به ، وإذا جلس وسعت له ، وإذا حدّث أقبلت عليه .

وقال أيضا : إنى لا أحب أن يمر الذباب بجليسى مخافة أن يؤذيه .

وقال زياد : ما أتيت مجلسا قط إلا تركت منه مالو جلست فيه لكان لى ، وترك مالى أحب الى من أخذ ما ليس لى .

وقال هو أيضا : إياك وصدور المجالس وإن صدرك صاحبها فإنها مجالس قلعة (أى وقتية فقد يطلب أن تخليها لمن هو أرفع قدرا منك) .

والقُلْعة : ما لا يدوم من المال . والمال العارية .

الكلام والمتكلمون

– ١١ –

متفلسفو المتكلمين — عضد الدين الايجى

هو عبد الرحمن بن أحمد عضد الدين الإيجى الشيرازى ، ولا يعرف التاريخ عنه أكثر من أنه ولد فى « إيج » وأنه كان أحد أكابر فقهاء الشافعية المتصوفين ، وأنه عين قاضيا ثم مدرسا فى شيراز فى سنة ٧٥٦ هـ — سنة ١٣٥٥ م .

أما مؤلفاته فهى كثيرة . وقد ذكر منها الأستاذ « بروكلمان » طرفا ، ولكن أهمها كتاب « المواقف » الذى سنعنى هنا بتحليله فى شىء من التفصيل . ومن مؤلفاته القيمة أيضا كتاب « العقائد العضدية » الذى عنى بشرحه أكثر من واحد من العلماء المتأخرين ، والذى كتب عليه المغفور له الأستاذ الشيخ محمد عبده حاشيته الشهيرة التى لا تزال الى اليوم تدرس فى الجامعة الأزهرية . والآن اليك إجمال الكتاب الأول وتحليله :

كتاب المواقف :

هو دراسة هامة فى علم الكلام ، مزجه المؤلف بكثير من الآراء الفلسفية المعروفة فى عصره .

يتكون هذا الكتاب من مقدمة وستة مواقف وتعقيب ألحقه به . وقد قسم المواقف الى مراصد ، والمراصد الى مقاصد ، فكان مثالا من مثل النظام والتبويب ، وفق اليه المؤلف بعد أن استفاد من اطلاعه الواسع الذى يحدثنا عنه فى مقدمته .

عرض الإيجى فى المقدمة للانسان وما يجب عليه أن يشغل به حياته إذا كان يحس بكرامته وإنسانيته ، فذكر أنه يتفق مع الجماد فى شغل قدر من الفراغ ، ومع النبات فى التغذى والنمو ، ومع الحيوان فى الإحساس والشهوات ، وأن ميزته الخاصة به إنما هى القوة الناطقة ، فاذا لم يستغلها ولم يبرز أثرها فى حياته ، فقد قضى بنفسه على الميزة التى ترفعه على الحيوان .

ولا ريب أن هذا أحد آثار أرسطو على المؤلف ، إذ أنه صرح فى عدة مواضع من كتبه بمثل هذه العبارات (١) .

انتهى الإيجى بعد ما قدمناه الى النتيجة الطبيعية لهذه الآراء ، وهى أن الانسان يجب أن يفرغ مجهوده للحياة العقلية . ولما كان لا يوجد بين العقليات علم أنبل من العلم الذى يتخذ

(١) انظر صفحة ١٠١ من الجزء الثانى من كتاب الفلسفة الاغريقية لكاتب هذه السطور .

موضوعه مبدع الكون ، وهو علم الكلام ، فقد عزم على الاشتغال به لضرورة ذلك لكل عاقل يشعر بحاجة الى أن يمتاز عن الكائنات المجم ؛ وهو فى هذا يقول :

« فإذاً ، الواجب على العاقل الاشتغال بالأهم ، وما الفائدة فيه أتم . هذا ، وإن أرفع العلوم وأعلاها ، وأنفعها وأجداها ، وأحراها بعقد الهمة بها ، و إلقاء الشراشر عليها ، وآداب النفس فيها ، وصرف الزمان إليها ، علم الكلام المتكفل باثبات الصانع وتوحيده وتنزيهه عن مشابهة الأجسام ، واتصافه بصفات الجلال والاكرام ، وإثبات النبوة التى هى أساس الاسلام ، وعليه مبنى الشرائع والأحكام ، وبه يترقى فى الإيمان باليوم الآخر من درجة التقليد الى درجة الإيقان ، وذلك هو السبب للهدى والنجاح ، والفوز والفلاح ، وأنه فى زماننا هذا قد اتخذ ظهريا ، وصار طلبه عند الأكثرين شيئا فريا ، لم يبق منه بين الناس إلا قليل ، ومطمح نظر من يشتغل به على الندرة قال وقيل . فوجب علينا أن نرغب طلبة زماننا فى طلب التدقيق ، ونسلك بهم فى ذلك العلم مسالك التحقيق » (١)

غير أن هذا الاشتغال بعلم الكلام لم يكن ليبرر فى نظره العكوف على تأليف مثل هذا الكتاب ، بل كان يكفى أن يدرس هذا الفن فى مؤلفات من سبقوه ، ولكنه أحاط بهذه المؤلفات وتغلغل الى أعماقها فلم يجد فيها ما ينقع غلة ، لأنه ألفاها إمّا ناقصة مُفرِّطة ، أو مسرفة مُفْرِطة ، أو حاكية مقلدة ، أو مهوشة أو ملفقة ، فأراد أن يسد هذه الثغرة فكتب كتاب « المواقف » . وإليك عبارته التى صور بها هذا الموقف ، والتى تعد نموذجا راقيا من نماذج النقد الذى لا يطمع المحدثون فى أدق منه ، قال :

« وإنى قد طالعت ما وقع لى من الكتب المصنفة فى هذا الفن ، فلم أر ما فيه شفاء لعليل ، أو رواء لغليل ، سيما والهمم قاصرة ، والرغبات فاترة ، والدواعى قليلة ، والصوارف متكاثرة ، فمختصراتها قاصرة عن إفادة المرام ، ومطولاتها مع الاسآم مدهشة للأفهام ، فمنهم من كشف عن مقاصده القناع ، وقنع من دلائله بالإقناع ، ومنهم من سلك المسلك السديد ، لكى يلحظ المقاصد من مكان بعيد ، ومنهم من غرضه نقل المذاهب والأقوال ، والتصرف فى وجوه الاستدلال ، وتكثير السؤال والجواب ولا يبالى إلام المآل ، ومنهم من يلفق مغالط لترويج رأيه ، ولا يدرى أن النقاد من ورائه ، ومنهم من ينظر فى مقدمة مقدمة ويختار منها ما يؤدى إليه بادئ رأيه وربما يكر بعضها على بعض بالإبطال ، ويتطرق الى المقاصد بسببه الاختلال ، ومنهم من يكبر حجم الكتاب بالبسط والتكرار ، ليظن به أنه بحر زخار ، ومنهم من هو كحاطب ليل ، وجالب رجل وخيل ، يجمع ما يجده من كلام القوم ينقله نقلا ، ولا يستعمل عقلا ، ليعرف أغث ما أخذه أم سمين ، وسخيف ما ألفاه أم متين ، فحدانى الحدب على أهل

---

(١) انظر صفحة ٤ من كتاب المواقف طبعة القاهرة .

الطلاب ، ومن له فى تحقيق الحق أرب ، الى أن كتبت هذا كتابا مقتصدا ، لا مطولا مملا ولا مختصرا مخلا ، أودعته لب الألباب ، وميزت فيه القشر من اللباب . ولم آل جهدا فى تحرير المطالب ، وتقرير المذاهب ، وتركت الحجج تتبختر اتضاحا ، والشبه تتضاءل افتضاحا ، ونبهت فى النقد والتزييف ، والهدم والترصيف ، على نكت هى ينابيع التحقيق ، وفقر تهدى الى مظان التدقيق ، وأنا أنظر من الموارد الى المصادر ، وأتأمل فى المخارج قبل أن أضع قدمى فى المداخل ، ثم أرجع القهقرى أتأمل فيما قدمت هل فيه من قصور ، وأرجع البصر كرة بعد أخرى هل أرى من فطور ، حافظا للأوضاع ، رامزا مشبعا فى مقام الرمز والإشباع ، حتى جاء كما أردت ، ووفق الله وسدد فى إتمام ما قصدت . جاء كلاما لا عـوج فيه ولا ارتياب ، ولا لجلجة ولا اضطراب ، متناسبا صدوره وروادفه ، متعانقا سوابقه ولواحقه ، بكرا من أبكار الجنان ، لم يطمثها من قبل إنس ولا جان » (١) .

بعد هـذه المقدمة تناول المؤلف فى الموقف الأول البحث فى العـلم بوجه عام ضروريه ومكتسبه ، ثم فى العلم النظرى ، ثم فى المعرفة الحسية ، وفى المبادئ الأولى أو البديهيات ، ثم حلل الآراء القائلة بضرورة العلم أو بعدم ضرورته ، ونقد الضعيف منها فى رأيه نقدا سليما مستقيما ، ثم عرض فى هذا الموقف أيضا للتصور والتصديق والقياس والبرهان ، وذكر الفرق بين الدليلين العقلى والنقـلى ، وسرد بعض الآراء المختلفة التى تباينت فى إفادة الدليـل النقلى اليقين أو عدم إفادته .

أما الموقف الثانى فقد عنى فيه المؤلف بأمور ، أكثرها ميتا فيزيكى مثل نظرية الموجود واللاموجود التى أفاض فيها ، فذكر الآراء الأربعة المختلفة حولها ، وهى : (١) إن المعدوم ليس بثابت ولا واسطة . (٢) المعدوم ليس بثابت والواسطة حق . (٣) المعدوم ثابت ولا واسطة . (٤) المعدوم ثابت والحال حق . ثم أبان الفرقة المعتنقة لـكل واحد من هذه الآراء وأوضح وجهة نظرها فيما تذهب اليه ، ثم عرض بعد ذلك للوجود وهـل هو عين الموجود أو غيره أو جزؤه ، وأبان المذاهب المتعارضة فى ذلك ، وتحدث عن الحال التى هى الواسطة بين الموجود والمعدوم وعن الماهية ، ثم عرض لمذهب أفلاطون فى المجردات ، فنفى أن لهـا وجودا حقيقيا إذ قال : « وأنت قـد علمت أن المجرد لا وجود له ، وأن القابل للمتقابلات الماهية من حيث هى هى . وأما وجود فرد يكون قابلا كزيد وعمرو ، فضرورى البطلان ، ولا يوجد فى الخارج إلا الهويات الجزئية » (٢) .

لاشك أن الايجى يسير فى هذا الجحود للوجود الذاتى للمجردات على مذهب جميع المتكلمين الذين أسلفنا لك فى أكثر من موضع أنهم إما اسميون (Nominalistes) وهم القـائلون بأن

(١) انظر صفحتى ٤ و٥ من المواقف . (٢) انظر صفحتى ٦٠ و ٦١ من المواقف أيضا .

المفاهيم ليست إلا أسماء ابتدعتها الأذهان البشرية ، متأثرة فى ابتداعها إياها باصطلاحات المسميات الخارجية ، ولهذا لا ثبات لها ، وهـو مذهب السوفسطائيين . وإما مفهوميون (Consiptualistes) وهم القائلون بأن المفاهيم لها وجودان : أحدهما فى المحسات قبل وقوع الحواس عليها ، وثانيهما فى الأذهان بعد انتزاعها من المحسات . أما الوجـود الذاتى المستقل عن هذين الموضعين ، فلا حقيقة له ، وهو مذهب أرسطو . أما المذهب الثالث فهو مذهب الحقيقيين (Réalistes) وهـو القائل بالوجـود الذاتى المستقل عن المحسات والأذهان لجميع المجردات . وقد قال به أفلاطون كما فهم الايجى .

عرض المؤلف بعد ذلك فى هذا الموقف للوجوب والإمكان ، وللواجب لذاته والممكن لذاته ، ثم للقدم والحدوث ، والوحدة والكثرة ، والعلة والمعلول ، بتفصيلات دافعة للحاجة وافية بالغرض .

أما الموقف الثالث فقد خصصه للعرض وما دار حوله من جدل بين الفلاسفة والمتكلمين ، ثم بين أهل السنة والمعتزلة ، ثم أورد شيئا من المآخذ التى ترد على خصوم أهل السنة فى هذه المشكلة . وقدقاده البحث فى العرض الى المقولات ، ثم استطرد فأسهب فى الكميات والكيفيات ، وعرض للحرارة والرطوبة واليبوسة ، والنور والظلمة ، وغيرها من المبصرات والمسموعات والمذوقات والمشمومات والملموسات . وبعد ذلك تناول الأمور النفسية فتحدث عن الحياة وأبان وجوداتها المختلفة فى الكائنات الحية ، وأثبت أن الموت هو عدمها ، ثم أفاض فى العلم فذكر مجمله ومفصله ، وما هو منه فعلى وانفعالى ، وما هو بالقوة وما هو بالفعل ، وعرض للجهل فشرح بسيطه ومركبه ، ثم تناول العقل فقسمه الى مراتبه الأربع ، الأولى : « العقل الهيولانى ، وهو الاستعداد المحض ، وهو قوة خالية عن الفعل كما للأطفال . الثانية العقل بالملكة ، وهو العلم بالضروريات . . . الثالثة العقل بالفعل ، وهو ملكة استنباط النظريات من الضروريات بحيث متى شاء استحضر الضروريات واستنتج منها النظريات . وقيل : بل حصول النظريات بحيث يستحضرها متى شاء بلا روية . الرابعة العقل المستفاد ، وهو أن يحضر عنده النظريات بحيث لا تغيب عنه » (١) .

وبعد أن أوضح هذه المراتب التى هى فى الحقيقة من أدق مسائل الفلسفة ، قرر أن العقل هو مناط التكليف ، ثم عرض بعد ذلك للإرادة والقدرة ، ثم تحدث عن الخلق فذكر حده كما وضعه الأخلاقيون ، ثم تناول فضائل الحكمة والعفة والشجاعة وأبان أن كلا منها وسط بين رذيلتين على نحو ما فعل أرسطو فى كتاب « الأخلاق الى نيقوماخوس » ، ثم أعاد الكرة على بعض المقولات كالأين والاضافة لجلا غوامضهما بهيئة تقتضى الإعجاب . « يتبع »

الدكتور محمد غلاب

(١) انظر صفحة ١٤٥ من المواقف .

الفلسفة بين الوجود والفكر

يذكر كثير من مؤرخي الفلسفة ، وفى مقدمتهم فندلبند Windelband ، أن الفلسفة لا يحدها تعريف واحد ، وليس لها ضابط عام ، لاختلاف الموضوعات التى تناولها الفلاسفة بالبحث فى العصور المتعددة ؛ ويذكرون أن كل فيلسوف كان يحدها بالموضوع الذى يميل أو قد يضطر الى بحثه ؛ وهذا صحيح الى حد ما .

ولكن لو ألقينا نظرة عامة على ما تناوله البحث الفلسفى منذ القدم حتى الوقت الحاضر لوجدنا أن هذا الذى تناوله البحث الفلسفى ، على سعته وتشعب أطرافه وكثرة تفاصيله ، يرجع الى موضوعين أساسيين : الى « الوجود » والى « الفكر » . وطبيعة العصر هى التى كانت توجه نظر المفكرين الى بحث واحد دائر بينهما على أنه الأصل وعلى أن الآخر إضافى له .

***

فالفلسفة منذ أن تفلسف الانسان حتى آخر القرون الوسطى ، أى الى آخر القرن الخامس عشر تقريبا ، كان موضوع بحثها الرئيسى هو الوجود ، وكانت صبغته العامة هى الصبغة الميتافيزيكية . فإفلاطون يقول: الفلسفة هى معرفة الوجود ؛ وعند أرسطو : علم ما وراء الطبيعة . والعصور الدينية بعد ذلك على تنوعها تراها فى بحث الوجود وعلة الكون . ومعنى أن الفلسفة الى آخر القرون الوسطى كانت تبحث فى « الوجود » أنها كانت تحاول تحديد أصل الكون ، وتحديد هذا العالم ، وتحديد علاقته بعلة الكون ، وتحديد غايته ومصيره . ومهما اختلفت الفلاسفة فى هذه الفترة ، اختلاف طابعهم ، من فرضى خيالى ، أو منطقى طبيعى ، أو دينى . ومهما اشتد التفاوت فى طرق بحثهم وفى المبدأ الذى حاولوا منه الشرح والتعليل ، فغايتهم جميعا كانت واحدة وهى معرفة الوجود الأزلى — أو الله — وتحديد درجات الموجودات الأخرى منه .

ترى إفلاطون ، وهو أول فيلسوف إغريقى له نظام فلسفى خاص به ، يضع مبدأ « المثل » ليصل منه الى التمييز بين « الوجود » الباقى « والوجود » الفانى ، أو بين الوجود الحقيقى وما له شبه بالوجود ، وليتخذ من هذا الوجود الحقيقى علة لشبه الوجود ، وشرحا لما هو حاصل فيه . وبهذا يجعل من عالمنا الفانى تابعا لما هو علة له ، وهو الوجود الحقيقى ـ الله ، أو المثل ، وعلى رأسها مثال الخير ـ فى النشأة وفى المصير . و« الوجود » إن كان ـ فى نظر إفلاطون ـ فى غاية

الكمال ، فما هو شبيه به (وهو العالم) يطرأ عليه النقص بسبب ما خالطه من مادة . والإنسان جزء من هذا العالم فعليه أن يسعى لتكميل نفسه بعدم تلبية رغبات المادة ، بالزهد وبالعلم .

ومع أن إفلاطون لا يلقب بالفيلسوف المنطقى — لأن عنصر « الفرض » يسود تفلسفه ، ولأن معظم ما كونه من آراء لا يمكن التمادى فى تعليله ، ولا فى مناقشته مناقشة عقلية — لا يفترق عن أرسطو المنطقى إلا فى الطريقة التى سلكها كل منهما فى تفلسفه ، وفى شرحه للوجود . فغاية أرسطو فى بحثه كانت أيضا تحديد الوجود الواجب ، وتحديد علاقته بالوجود الممكن ، تحديد المبدأ الأول وعلاقته بالعالم . وهو وإن لم يصرح بتبعية الثانى للأول - لأنه طبيعى يحاول شرح الشىء من نفسه لا من أمر خارج عنه كما هو شأن الإلهى ، وهما طريقتان فى البحث الفلسفى - إلا أنه فى شرح أحدهما بالآخر يجعل غاية الوجود الممكن ، وهو هذا العالم ، السعى الى التقرب من الوجود الواجب ، والوصول الى درجته فى الكمال . وبنى ذلك على ما فرضه من مبدأ عام له ، وهو مبدأ التطور ، أو مبدأ الصورة والمادة .

وليس بغريب أن أهمية البحث الفلسفى الإغريقى تكاد تكون وقفا أولاً وبالذات على «الوجود» ، وأن تكون فكرته الرئيسية هى « فكرة الوجود » ، لأن تفلسف الإغريق لم يكن كله ابتكارا بل غالبه « انتزاع » لآراء كانت منثورة فى الأساطير الدينية Mythologie ، وتعديل قائم على النقد لبعض العقائد الشعبية الموروثة ، فلم يتخلص تماما من الدين ، ولا من أصل فكرته ، وإن لم تكن له قداسته . وطبيعة الدين تعنى أول ما تعنى بإعطاء صورة عن الخالق — وهو المبدأ الأول أو العلة الأولى فى تعبير الفلاسفة — فى غاية الكمال تستحق وحدها وصف الوجود ، ثم بإعطاء صورة أخرى عن علاقته بمخلوقاته . وهم على كل حال دونه مرتبة وكمالا .

فالفلسفة وإن ادعت الاستقلال فى البحث ، بعيدةً عن التأثر بمصادر الدين ، فقد قلدته — على الأقل فى عهدها الأول — فى اتجاهه ، وفيما يعنى به . فاتجهت الى « الوجود » وعنيت بشرح « مبدئه » ، وأطلقت على ذلك « ما وراء الطبيعة » ، وسماه الدين « مصدر الفيض » . والدين فيما يحكيه عن مصدر الفيض أو مصدر الوجود يعتمد على الوحى السماوى (العلوى) ، بينما تعتمد الفلسفة فى بحثها فى « ما وراء الطبيعة » على أداة من نفس الطبيعة ، أى على الانسان . ولذا كان حكمه ، مهما بدا فى صورة منطقية ، على عالم ما وراء الطبيعة ، حكم الأجنبى على غير بيئته ، حكم المتخيل غير المجرب .

والفلسفة الدينية ، وهى الفلسفة المسيحية والاسلامية واليهودية ، لم تخرج عن تقليد الفلسفة الإغريقية فى العناية بموضوع « الوجود » وإن كان على أساس التقيد بما ورد فى العقيدة الدينية . ولذا كانت ترى أن مهمتها فى التوفيق بين ما ينسب الى فلاسفة الإغريق من جهة ، وبين ما يقوله الدين من جهة أخرى ، أكثر من الاستمرار فى البحث على أساس

الاستقلال ؛ الأساس الذى تميزت به الفلسفة عن الدين . فرجال الأفلاطونية الحديثة ، والفنوسطية ، وآباء الكنيسة ، وفلاسفة المسلمين ، وفلاسفة اليهود — كموسى بن ميمون — عُنوا ببحث الوجود ، وعلة الكون أيما عناية ، محاولين تفلسف الدين ، أى التقريب بين وجهتى نظر الفلسفة والدين .

وإذاً فقد كان قوام تفلسف الاغريق فيما قبل الميلاد ، وتفلسف رجال الدين فيما بعده حتى آخر القرون الوسطى ، واحداً ، وهو تحديد « الوجود » ؛ ولكن فى نظر الفلاسفة باسم علة العلل ، وفى نظر علماء الدين باسم الله . وليس معنى ذلك أن بحث الفلاسفة كان قاصرا على تعرف العلة الأولى ، وبحث رجال الدين لم يتجاوز الله ، بل العلة الأولى أو الله كان بدء البحث — وجوهره كذلك — فى نظر الفريقين .

***

منذ عصر النهضة ، أى منذ أن تحول البحث وتحول الاتجاه فيه عن « ما وراء الطبيعة » الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون الى الكون نفسه ، انتقلت عناية البحث الفلسفى بالتدريج شيئاً فشيئاً الى الانسان وإلى « عقله وفكره » ؛ وابتدأنا نرى ديكارت يعرف الفلسفة بالعلم لأصول المعرفة الانسانية ؛ وهيجل من بعده يحدها بعلم العقل المفكر . وحل الفكر الانسانى فيما بعد عصر النهضة محل « الوجود » أو المبدأ الأول فى العهد القديم ، سواء أكان فى العناية ببحثه أو فى الاعتداد به . ولكن مع ذلك ، وإن كان منزلة إضافية الى حد بعيد ، لم يغفل هنا بحث ما وراء الطبيعة ، كما لم يغفل هناك فى العصور الأولى للفلسفة بحث الانسان .

هذا التحول يرجع فى بدء الأمر ، أى فى أول النهضة ، الى رغبة الباحثين فى تجنب الاحتكاك برجال الكنيسة خشية أن ينالهم من سلطانهم أذى ، ثم فيما بعد الى تحديد معنى العلم الذى تأثر الى حد كبير بالأبحاث الطبيعية التجريبية والأبحاث الرياضية النظرية . ففى القديم كان معيار العلوم المفاهيم الكلية ثم المنطق الصورى . والآن أصبحت التجارب والتحديدات الرياضية هى المقياس الذى يحتكم إليه فى وصف « المعرفة » باليقين أو الاعتبار العام . ولا شك أن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمى الحديث . فتعرضُ الباحث لها إذاً — على أنها الأهم كما كان الحال فى القديم — حكم منه على نفسه بالعزلة عن بيئة الوقت العلمية ، وعن موضوع التنافس فى البحث . ولذا رأى « كانت » أن اختصاص الفلسفة كعلم هو الناحية العملية وتحديد الحياة الواقعة . أما القسم الإلهى فإن بحثته فلا يحق لها أن تطلب لهذا البحث صفة العلم اليقينى .

وقد كان من أثر هذا التحول والاتجاه أن تطرف بعض الباحثين ، وهم الملقبون بالعقليين

(Rationalisten) ، فى تقويم الانسان ، فقطعوا صلته بالعالم العلوى ولم يصبح « منحدرا عنه » ولا فى معرفته معلقا به ، كما كان الحال فى مدارس الأغريق (أفلاطون وأرسطو) . ولم يصبح علمه « فيضا » ولا غايته « تشبها بالله » أو « اتحادا به » كما أرادت المدارس الدينية بعدها ، بل أصبح علمه من « ذاته » وإرشاده من « نفسه » ، وأصبح هو الذى يفيض من نفسه على نفسه ، وصاحب الكلمة فى هذا الكون .

وكلما مال المقياس العلمى الى التجربة والى التحديد المادى ، مال البحث فى دائرة الانسان عن الناحية التى يشوبها الظن أو الخيال فيه ، الى الناحية التى هى أقرب الى المشاهدة . وبهذا تولدت ، منذ آخر القرن التاسع عشر ، الرغبة فى بحث تصرفات الانسان أكثر من بحث عقله ، وفى بحث طريق اكتسابه المعرفة أكثر من إمكان استقلال معرفته عن التجارب أو عدم إمكانها . وأصبحنا نرى أبحاثا نفسية تجريبية بجانب الأبحاث الانسانية العقلية . أصبحنا نرى علم النفس التجربى بجوار « نظرية المعرفة » وبجوار « مبدأ الواجب » .

فاذا كانت أبحاث ما وراء الطبيعة هى التى لعبت الدور الأول فيما قبل الميلاد حتى القرن الخامس عشر بعده ، فالأبحاث الانترويولوجية هى التى تركز فيها تفكير الانسان منذ عصر النهضة حتى أوائل القرن العشرين . وإذا تميزت فلسفة الماضى البعيد بأنها (Transjendenz) ففلسفة الحاضر والنهضة من قبل (Immanenz) .

محمد البهى
مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

هل من فلسفة اسلامية ؟

نشرنا هذا البحث الممتع لحضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى ، ولسنا نعقب على ما كتبه لنرد عليه ، فان كل ما كتبه صحيح فى ناحية الفلسفة المادية ، ولكن مجلة الأزهر متى كتبت فى الفلسفة فلا يجوز لها أن تقتصر على الناحية المادية منها ، ولا أن تغفل ذكر ما أصاب هذه الفلسفة من تدهور وسقوط أمام المكتشفات الحديثة .

ذكر حضرته الفلسفة الدينية وفسرها بأنها المسيحية والاسلامية واليهودية ؛ وذكر أن مهمتها كانت التوفيق بين ما يُنسب الى فلاسفة الاغريق من جهة وبين ما يقوله الدين من جهة أخرى ، أكثر من الاستمرار فى البحث على أساس الاستقلال ، الأساس الذى تميزت به الفلسفة عن الدين . ولكن منذ عهد النهضة فى أوروبا (أى فى القرن الخامس عشر والسادس عشر) تحول البحث عن (ما وراء الطبيعة) الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون (أو الله) الى الكون

(Rationalisten) ، فى تقويم الانسان ، فقطعوا صلته بالعـالم العلوى ولم يصبح « منحدرا عنه » ولا فى معرفته معلقا به ، كما كان الحـال فى مدارس الأغريق (أفلاطون وأرسطو) . ولم يصبح علمه « فيضا » ولا غايته « تشبها بالله » أو « اتحادا به » كما أرادت المدارس الدينية بعدها ، بل أصبح علمه من « ذاته » وإرشاده من « نفسه » ، وأصبح هو الذى يفيض من نفسه على نفسه ، وصاحب الـكلمة فى هذا الـكون .

وكلما مال المقياس العلمى الى التجربة والى التحديد المـادى ، مال البحث فى دائرة الانسان عن الناحية التى يشوبها الظن أو الخيال فيه ، الى الناحية التى هى أقرب الى المشاهدة . وبهذا تولدت ، منذ آخر القرن التاسع عشر ، الرغبة فى بحث تصرفات الانسان أ كثر من بحث عقله ، وفى بحث طريق اكتسابه المعرفة أ كثر من إمكان استقلال معرفته عن التجارب أو عـدم إمكانها . وأصبحنا نرى أبحاثا نفسية تجريبية بجانب الأبحاث الانسانية العقلية . أصبحنا نرى علم النفس التجربى بجوار « نظرية المعرفة » وبجوار « مبدأ الواجب » .

فاذا كانت أبحاث ما وراء الطبيعة هى التى لعبت الدور الأول فيما قبل الميلاد حتى القرن الخامس عشر بعـده ، فالأبحاث الانتروبولوجية هى التى تركز فيها تفكير الانسان منذ عصر النهضة حتى أوائل القرن العشرين . وإذا تميزت فلسفة المـاضى البعيد بأنها (Transjendenz) ففلسفة الحاضر والنهضة من قبل (Immanenz) .

محمد البهى
مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

هل من فلسفة اسلامية ؟

نشرنا هـذا البحث الممتع لحضرة الأستاذ الدكتور محمد البهى ، ولسنا نعقب على ما كتبه لنرد عليه ، فان كل ما كتبه صحيح فى ناحية الفلسفة المـادية ، ولـكن مجلة الأزهر متى كتبت فى الفلسفة فلا يجوز لها أن تقتصر على الناحية المـادية منها ، ولا أن تغفل ذكر ما أصاب هذه الفلسفة من تدهور وسقوط أمام المـكتشفات الحديثة .

ذكر حضرته الفلسفة الدينية وفسرها بأنها المسيحية والاسلامية واليهودية ؛ وذكر أن مهمتها كانت التوفيق بين ما يُنسب الى فلاسفة الاغريق من جهة وبين ما يقوله الدين من جهة أخرى ، أكثر من الاستمرار فى البحث على أساس الاستقلال ، الأساس الذى تميزت به الفلسفة عن الدين . ولـكن منذ عهد النهضة فى أوروبا (أى فى القرن الخامس عشر والسادس عشر) تحول البحث عن (ما وراء الطبيعة) الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الـكون (أو الله) الى الـكون

نفسه . ثم قال : إن نتائج البحث النظرى فى الإلهيات تبعد كثيرا عما يطلبه المقياس العلمى الحديث ، فتعرُّض الباحث لها ، كما كانت الحال قديما ، حكمٌ منه على نفسه بالعزلة عن بيئة الوقت العلمية . . . الخ الخ .

هذا كلام لا شية فيه من ناحية تصوير النزعة الإلحادية للفلسفة المادية ، وكل ما يعنينى من إيراده أن أنبه القارئين أنه لا توجد فى الاسلام فلسفة مستمدة من الخارج يمكن أن توصف بالدينية أو الاسلامية ، وكل ما وجد فى عهد نهضة المسلمين ، أن أفرادا منهم أُغرموا بالثقافة اليونانية القديمة ، فأخذوا إخذها فى الفلسفة ، واشتغلوا بدراسة مذهبىْ أفلاطون وأرسطو ، وأوسعوها تفلية وشرحا ، حتى صاروا زعماءها على عهدهم . ولست أنكر أن هؤلاء حاولوا تطبيقها على الاسلام ؛ ولكن أئمة الدين ، فى كل زمان ومكان ، أنكروا عليهم ذلك ، وجاء حجة الاسلام الغزالى فى القرن الخامس من الهجرة ، فبيَّن قصر نظرهم ، وضعف أدلتهم فى كتاب مشهور له ، دعاه بتهافت الفلاسفة . والتهافت لغة : التساقط قطعة قطعة هلاكا وتلاشيا . فيقال : تهافت القوم : أى تساقطوا موتا ؛ وتهافت الثوب : أى تساقط وبلى .

فاذا كان قد حدث فى الفلسفة تطور منذ عهد النهضة العلمية الحديثة ، فرجع عن أساسها الاغريقى وهو البحث فيما وراء الطبيعة الى البحث فى الطبيعة نفسها ، وعن البحث فى علة الكون أو الله الى الكون نفسه ، واعتبرت الفلسفة القديمة لهذا السبب عتيقة رثة ، لا يجوز أن يشتغل بها إلا من يريد أن يتخطى المقياس العلمى الحديث ؛ قلنا إذا كان قد حدث هذا وهو لم يحدث إلا فى ناحية الفلسفة المادية ، فلا يصيب الاسلام منه شىء ، وإنما يصيب تلك الفلسفة التى اشتغل بها رجال من أهله منذ نحو ألف سنة . بل يشهد هذا الرجوع عنها ببعد نظر أئمة المسلمين الأولين الذين كرهوا الاشتغال بها على الأسلوب اليونانى ، وبثقوب رأى حجة الاسلام الغزالى فى وصف الذين كانوا يشتغلون بها بالتهافت .

ليس فيما نقوله ما يؤيد قول خصوم الاسلام إنه يصد عن الفلسفة ، ولكنه يؤيد أنه يصد عن الخبط فيما ليس فى متناول العقل الانسانى القاصر إدراكه من حقيقة هذا الوجود الضخم ، وعن الجمود على خيالات تعتبر مسلمات ، ويُبنَى عليها ما يشاء الهوى من أوهام لا تقف عند حد ، ثم يتبين فسادها فيما بعد .

كان أساس الفلسفة اليونانية أن للوجود أصلا هو الجوهر الفرد . وما هو هذا الجوهر الفرد فى نظرهم ؟ كانوا يقولون إنه جرم مادى متناه فى الصغر ولا يقبل الانقسام ، تألفت منه جميع ما فى العالم من الأجرام العلوية ، وما على الأرض من الأجساد النباتية والحيوانية . وهذا الأصل المادى قديم أزلى . وقد اختلفوا فى علة تنوع الصور التى نشأت منه ، فبعضهم

كان يقول إنها نشأت بإرادة إله قادر حكيم ، قدَّر لكل منها الصورة التى هو عليها ؛ وبعضهم كان يقول بأنها نشأت على طريقة الاتفاق والخبط .

وكان الأولون يثبتون للانسان روحا غير مادية ، تخلد فى عالم أرقى من هذا العالم ؛ والأخيرون ينكرون الروح ويزعمون أن الانسان يفنى بفناء جثمانه ؛ وللفريقين فى إثبات الروح ونفيها ، وفى إثبات المعاد ونفيه ، أقوال كلها مستمدة من عالم الخيال . فهى ملتطم من نظريات ساذجة ، وأوهام باطلة ، ليس عليها من مسحة العلم إلا ما ودعته من العبارات المؤنقة .

قلنا إن أئمة الاسلام قاوموا الفلسفة اليونانية فى أول ظهورها ، وثابروا على منابذتها لا بالوسائل التعسفية كما فعل سواهم ، ولكن فى مجال البحث الحر ، وهم ما فعلوا ذلك ليعيشوا بدون فلسفة ، معيشة السذج البُلْه ، ولكنهم فعلوه لأن الاسلام نفسه أتاهم بحكمة ذات أصول مقررة فى كتابه ، وجدوا الفلسفة اليونانية بجانبها قاصرة . ونحن الذين ُبلينا فى هذا العهد بوجوب الأخذ بفلسفة نقوِّم بها عقولنا ، ونسترشد بأصولها فى ثقافتنا ، وجب علينا أن نعرض على أفهامنا مبادىء جميع الفلسفات ، وما انتهت اليه العقول من أشكالها لنأخذ بأحسنها .

فلنترك هذا الموضوع جانبا الآن لنعود اليه بعد .

قلنا إن كل ما كتبه حضرة الأستاذ الدكتور البهى صحيح من ناحية الفلسفة المادية . فهى التى حولت البحث عما وراء الطبيعة الى الطبيعة نفسها ، وعن علة الكون (أو الله) الى الكون نفسه .

ونريد هنا أن نقول : إنها فعلت ذلك ذهابا منها أن ليس للطبيعة وراء غير العدم ، فماذا ترجى أن تجد فى العدم ؟ وأن ليس للكون علة أوجدته ، فهو قديم بمادته وقواه ، فعلام البحث عن الله ؟

ولكن ليس جميع المفكرين على هذا الرأى ، وخصوصا فى هذا العهد الذى حطمت فيه المكتشفات الحديثة أصول المذهب المادى تحطيما ذريعا ، فقد ظهر فيه عمليا أن مذهب الجوهر الفرد المادى وهم من الأوهام ، وهو أساس الفلسفة المادية ، إذ ثبت ثبوتا قاطعا أن المادة المحسوسة مؤلفة من كهارب ، وقد اكتشفت وسيلة لتحليلها وأحالتها الى قوة مجردة عن المادية . وقد قام علماء كثيرون بتجارب على الشخصية الانسانية فشوهد أن لها وجودا مستقلا واتصالا بعالم أرقى منها ، فأصبح بذلك كشف ما وراء الطبيعة أمرا لا بد منه لإمكان فهم الوجود المادى على حقيقته . وقد تأثرت العقلية الفلسفية بهذه المكتشفات الى حد بعيد ، حتى أحدثت انقلابا خطيرا فى وجهات النظر العلمية . جاء فى مجلة المقتطف فى مجلد سنة (١٩١٨) تحت عنوان (البحث الفلسفى الحديث) ما يأتى :

« من يطالع ما ينشر من الكتب والمقالات الفلسفية يجد أن أصحابها مالوا عن الطريقة العلمية الى الطريقة الروحية » .

ثم أنحت المجلة على هذا التحول بالاستنكار ، فرأينا أن نلاحظ على هذا الاستنكار بمقال أرسلناه لتلك المجلة ، فنشرته فى عددها الذى صدر فى يناير سنة ١٩١٩ ، قلنا فيه بعد أن أوردنا قولها :

« هذا كلام صريح بأن الميل العام أخذ يتجه غير الوجهة المادية فى المباحث الفلسفية . وهو حادث جلل فى تاريخ الفلسفة الاوروبية لا يصح أن يهمل أمره ، ولا أن يعلل تعليلا بنظرة عجلى ، فإن أوروبا التى بلغت أشدها فى المباحث المادية ، وذاقت ثمار جهادها فيها عدة قرون ، لا تظهر فيها مثل هذه الحركة اعتباطا ، ولكن لا بد لذلك من علل جديرة بانعام النظر » . ثم طالبنا المجلة بوجوب النظر فى تلك العلل وتقديرها .

ونقول هنا : إن العالم الفلسفى لم يكن فى عهد من عهود تاريخ الانسانية العقلى ، على مثل ما هو عليه اليوم من التداعى والتفكك ، فجميع النظريات العلمية الكبرى التى كان يظن أنها تمثل الحقائق الثابتة وُضعت اليوم فى الميزان ، وظهرت الثغرات التى كانت محجوبة عن الأنظار فيها ظهورا أفقدها الثقة التى كانت لها إفقادا لا مرد له ، وأصبح الناس يتطلعون الى نظريات على الوجود والموجودات تناسب المكتشفات الحديثة فى عالمَى المادة والروح معا .

قال الفيلسوف الكبير (جيو) (Guyau) فى كتابه « لا دينية المستقبل » (l'Irreligion de l'Avenir) ناقدا المذهب المادى ، وهو كما يدل عليه اسم كتابه ليس من أنصار الأديان :

« إذا وُسِّع المذهب المادى وجب عليه أولاً نسبة الحياة الى العنصر العام ، بدلا من أن يفترضه مادة عمياء . قال الفيلسوف (سبنسر) : « كل جيل من الطبيعيين يكتشف فى المادة الموصوفة بالعمى ، قوى ما كان يحلم بوجودها أعلم علماء الطبيعة قبل ذلك بسنين معدودة » : ذلك لأننا لما رأينا أجساما جامدة تحس رغما عن جمودها الظاهر بتأثير قوى لا يحصى عددها ، ولما أثبتت لنا آلة التحليل الطيفى (السبكتروسكوب) بأن الذرات الأرضية تتحرك بالاتفاق مع الذرات الموجودة فى الكواكب ، ولما اضطررنا الى أن نستنتج من ذلك أن ذبذبات لا يحصى لها عدد تخترق الفضاء فى كل وجهة وتحركه ، لما رأينا ذلك كله وجب علينا أن ندرك كما يقول سبنسر : « أن الوجود ليس بمؤلف من مادة ميتة ، بل هو وجود حى فى كل جهة من جهاته ، حى بأعم معانى هذه الكلمة إن لم يكن بأخص معانيها » . ثم عاد جيو فقال :

« الاصلاح الثانى الذى يحتاج إليه المذهب المادى لكى يفى بحاجة البحث عن العلل الأولية ، هو أن يفترض أن للمادة مع الحياة جرثومة روحانية . وبما أن هذه المادة الأولية هى عبارة عن قوة صالحة للحياة وللفكر معا ، فليس هذا ما يفهم عمليا ولا علميا من معنى

المادة ، فضلا عما يفهم من معنى الأيدروجين (الذى يظن البعض أنه المادة الأولية) . فالمادى البحت الذى يلمس بيديه كرة الدنيا معتمدا على الحاسة الغليظة ، وهى حاسة اللمس ، يصيح قائلا : الكل مادة ! ولكن المادة نفسها تستحيل فى نظره الى قوة (كما ثبت من تحليلها) ، والقوة ليست إلا صورة من صور الحياة ، وعلى هذا يستحيل المذهب المادى الى مذهب روحانى . وتجده مضطرا أمام الكرة الأرضية الدائرة لأن يقول إنها حية . وإذ ذاك يتدخل شخص ثالث يضرب هذه الكرة برجله كما فعل غاليليه ، ويقول نعم هى قوة ، بل حركة ، بل حياة . ومع ذلك فهى أيضا شىء آخر لأنها تفكر فىّ ، وتدرك ذاتها بى . » انتهى كلام الفيلسوف جيو .

نعود نحن فنقول : ما الذى حدث فى العالم حتى أصبحت المذاهب التى كانت تزعم أنها راسخة رسوخ الجبال ، تتطاير شعاعا أمام النقد الصارم ؟ حدث ما يحدثك عنه الأستاذ الكبير (جوستاف لوبون) مكتشف تحليل المادة الى قوة ، كما جاء فى كتابه تحول المادة : (La transformation de la matière) .

« دامت الثقة فى صحة المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها الى أن حدثت فى الأيام الأخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمى (تأمل) ، الذى كان لا يرى صدوعه إلا عدد قليل من العقول العالية ، بأن يتزعزع فجأة بشدة عظيمة ، وصارت التناقضات ، والمحالات العقلية التى فيه ظاهرة للعيان ، بعد أن كانت من الخفاء بحيث لا تبلغها الظنون .

« أدرك الناس على عجل أنهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون : هل كانت الأصول المؤلفة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية ، أكثر من افتراضات واهية تحجب تحت غشائها جهلا لا يسبر له غور ؟ »

وقال الأستاذ العلامة الرياضى هنرى بوانكاريه العضو بالمجمع العلمى الفرنسى ، فى مقدمة كتابه العلم والافتراض (La science et l'hypothèse) صفحة ١ :

« لما تروّى العلماء قليلا لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وأن التجربة لا تستغنى عنها كذلك ، حين ذاك سأل بعضهم بعضا : هل هذه الصروح العلمية على شىء من المتانة ؟ وتحققوا أن نفخة واحدة تجعل عاليها سافلها . فمن ألحد على هذا الوجه صار سطحيا أيضا ، فان الشك فى كل شىء أو الاعتقاد بكل شىء يعتبران حلين قليلى الكلفة ، فان كلا منهما يعفينا من إعمال الروية » .

نفخة واحدة قد تنسف هذه المقررات العلمية المعتبرة اليوم يقينية ، وتجعل عاليها سافلها ! هكذا يقول الأستاذ الرياضى الكبير هنرى بوانكاريه ، فماذا يكون كلام المحبين للعلم ،

الراغبين فى أن يروا له حرما آمنا من الانقلابات والزعازع ، كما كان الناس يتخيلون ذلك له من قبل ؟

ذلك ما لا سبيل اليه ، فما دام الوجود غير محدود ، ووسائل الانسان لدراسته قاصرة على ما تؤتينا به حواسنا الخمس ، وهى لا ترى منه إلا القشور الظاهرة وفى ناحية منه صغيرة ، فلا يمكن أن ينتهى الانسان منه الى مقررات يقينية لا تتزعزع .

وقد أجاد العلامة الكبير (الدكتور جوستاف لوبون) مكتشف تحليل المادة فيما قاله فى هذا الصدد فى كتابه تحول المادة المذكور آنفا :

« من حسن الحظ لا شىء أكثر ملاءمة للترقى من هذه الفوضى العلمية . فالوجود مفعم بمجهولات لا نراها ، والحجاب الذى يحجبها عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التى تفرضها علينا تقاليد العلم الرسمى ، فلا يمكن عمل أية خطوة الى أمام إلا بعد تفكك عرى الآراء السابقة . والأمر الشديد الخطر على ارتقاء العقل الانسانى ، هو تقديم الظنيات للقراء لابسة حلل الحقائق المقررة ، على نحو ماتفعله كتب التعليم ، والتطاول لوضع تخوم للعلم ، ورسم حدود لما يمكن معرفته كما كان يود ذلك اجوست كومت » .

نقول : إذا كان العلم الذى كان معتبرا فى قرار مكين من الثبوت والرسوخ قد انتهت مقرراته السابقة الى ما ترى من تزعزع الأركان حيال المكتشفات الجديدة ، فما ظنك بالفلسفات وهى لا تقوم إلا على تلك المقررات ، ولا توصف باليقينية لأنها من عالم التفكير والاستنتاج ، وقد اختلف فيها حتى بلغت بأصحابها أبعد حدود التناقض ، وهو أمر لا يحتاج لبيان ؟

وبعد :

فان ما نشهده فى هذا العصر من هذه الثورة العلمية والفلسفية ، سيكون له آثار بعيدة المدى فى الطأمنة من كبرياء علماء الطبيعة والفلاسفة معا ، فقد كانت وصلت بهم الخيلاء الى أبعد حدود التمرد ، حتى زعموا أنهم يستطيعون أن يعللوا جميع الظواهر الوجودية ، حتى الروح الانسانية والقوى العقلية ، بعدد قليل من النواميس الطبيعية ، وهذا من الغرور الذى لا علاج له إلا ما أصابهم من هذا الإبلاس الذى فاجأهم من هذه المكتشفات فى عالم الطبيعة المادية نفسها ، لا فى عالم الروح كما قد يتوهمه بعض قراء هذه المجلة .

ونحن حين نقدم لقومنا ثمرة ما حصلناه من العلوم والفلسفة ، لا يجوز لنا أن نقدمها إلا على هذا النحو من النقد والتمحيص والتغلية ، فان المسلمين بما طولبوا به من إقامة مبدأ التثبت عملا بقوله تعالى : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » لا ينبغى أن تحمل اليهم المعلومات إلا محاطة بوسائل التثبت والنقد ، لكى يستطيعوا أن يستصفوا

منها اللباب المحض فيأخذوا به ، أو يتميزوا الظنى المرجوح فيعرفوه ولا يغتروا به . وقراء هذه المجلة الذين يستنزلون المعرفة الحقة من ناحيتها لهم الحق فى هذا الاحتياط نفسه .

لو سرنا على هـذا السمت خدمنا المسلمين وقراء مجلة الأزهر خدمة تؤتى ثمراتها اليانعة مباركة موفورة ، وحميناهم من نُفاية الآراء الضالة التى قد تبقى مادة للدراسة مدة طويلة قبل أن تأخذ طورا جديدا كما يقول الأستاذ الدكتور (جوستاف لوبون) فى مقدمته التى نشرنا هنا فقرات منها ، فقد قال :

« لا مشاحة فى أن الأصول التى كان العلم يختال بها اختيالا لم تَزُل كل الزوال ، ولـكنها ستبقى أمدا طويلا فى نظر الدهماء كحقائق مقررة ، وستستمر الـكتب التعليمية على نشرها ، ولـكنها قد فقدت كل ما كان لها من مكانة فى نظر العلماء الحقيقيين » .

ولما كانت العـلوم الطبيعية وفلسفتها أصبحت تنهمر على دور الدراسات الاسلامية ، فقد أضحى واجبا على مجـلة الأزهر أن تقف لها بالمـرصاد ، فتنبه على جهات الضعف فيها ، وعلى ما رآه النقاد من ثُلَمها ، مع شفعها بتفصيل العوامل التى قضت على العلماء بان يتنبهوا لانخداعهم بها .

هذه الدراسة التحليلية لنظريات العلوم وللفلسفة المبنية عليها إن اعتبرت واجبة فى ذاتها ، فهى لطلاب الحقائق الدينية أوجب ، لأنها تؤمنهم خطر التدهور فى مزدلقات الآراء الالحادية ، وتهديهم الى طرق تمحيصها بحيث ييأس مريدو فتنتهم أن يهاجموهم من قبلها .

لقد كانت العلوم الطبيعية وفلسفتها فى جميع أدوارها خصما عنيدا لطلاب الحقائق العلوية ، حتى جاء زمان كان لا يجرؤ فيه الباحث فيما وراء الطبيعة من العالم غير المنظور أن يُظهر نفسه ، تفاديا من أن يسخر منه الناس ويعتبروه من ذوى العقول الساذجة ، ولـكننا أصبحنا فى زمان يعتبر فيه من يُغفل هذا البحث ، مكتفيا بالقشر عن اللباب ، وليس هذا من سلامة الفطرة ، وصحة النظر فى شىء . فعلينا أن نمضى مع العـلم والفلسفة حيث مضيا ، وأن نجول معهما حيث جالا ، ولـكن لا يجوز لنـا أن نقف معهما حيث وقفا من تعاليم هما نفساهما يعتقدان أنها وقتية ، بعد ما بلغا رشدهما وتحققا أن الوجود حافل بالمجهولات ، وأن اكتشافا جديداً قد يحدث فيهما انقلابا ماكان يخطر على قلب أوسع الناس تخيلا .

ولم يأت على الناس عهد شهد العلم فيه على نفسه بالعجز ، واعترفت فيه فلسفته بالقصور ، مثل العهد الذى نعيش فيه . فلنتخلص من فتنة الآراء الضيقة ، ولنستقبل علما أرفع ، وفلسفة أوسع ، نستشرق منهما نور الحق « ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

محمد فريد وجدى

الهجرة

كلما دار الفلك دورته ، وأقبل العام الهجرى ، وحزبت المسلمين الخطوب ، واشتدت عليهم الكروب ، وأظلمت أمامهم مشاكل الحياة ، هفت قلوبهم ، وتطلعت نفوسهم الى سيرة النبى الكريم ، يستروحون منها ، ويتنسمون عاطر شذاها ، ويستلهمونها العبر ، ويستوحونها الرشاد .

وإنها لرياض تزدهر بجلائل الأعمال وعظائم الأمور ، ويرف فى ظلالها الخير والهدى . وإنها لدستور لو طبقه المسلمون على سائر أعمالهم لكانوا سادة الأمم وقادة الشعوب ، ولرقت أفرادهم وجماعاتهم ، ولظل بأيديهم صولجان الملك فى سائر الأقطار ، ولكانوا الرءوس لا الأذناب ، ولسخَّروا الشعوب ولم تسخر منهم الشعوب .

ولكنا جعلنا القدوة غيرها فضللنا ، وجعلنا الامام سواها فتحيرنا ، وذهبت بنا المذاهب ، وتفرقت بنا الأهواء والشهوات ، فصرنا شيعا تتقاذفنا الأمم تقاذف الكرات ، لا حول لنا ولا قوّة ، ولا إرادة إلا حيث يرادمنا أن تكون لنا إرادة .

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

فاللهم نفحة من نفحات رسولك ، وشعلة من جذوة إرادته تصلح أحوالنا ، وتعيد مجدنا وسلطاننا ، وتجمع المتفرق من قلوبنا وأهوائنا .

***

فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم مُثل عليا للفضائل الانسانية ؛ فيها مثل أعلى للخير والبر والصفاء والوفاء ، والثبات فى البأساء ، والصبر على اللأواء ؛ فيها مثل أعلى للأمانة فى أداء الرسالة ، والتضحية فى سبيل المبدأ والدفاع عن الحق ، وحسن السياسة والبراعة فى القيادة ؛ فيها مثل أعلى للحياء والتواضع ، والشكر والزهد ، والعفة والقناعة ، والجود ، وحسن العشرة ؛ وفيها غير ذلك مما يقصر عنه الوصف ويقف دونه البيان . وضربُ الأمثال لهذه الخصال يضيق به هذا المقال .

لولا عجائب صنع الله ما نبتت هذى الفضائل فى لحم ولا عصب

وإذا كان الفداء والتضحية مما يحمده الناس ويقدرونه ، وتلهج بذكره ألسنتهم فى هذه الظروف خاصة ، فإن حادث الهجرة وما فعله النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعلى رضى الله عنهما ، يعتبر مثلا أعلى للتضحية والفداء فى سبيل المبدأ والمصلحة العامة .

فالنبى صلى الله عليه وسلم هاجر من وطنه ـ والوطن حبيب الى النفس لاصق بالروح ـ

وفارق أهله وأنصاره وقومه ، أشد ما يكون تعلقا بهم وحرصا على البقاء فيهم ، وأعظم ما يكون جهادا فى هدايتهم ، وندما على تماديهم فى غوايتهم ، حتى عزاه الله بقوله : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ، وقوله « فلعلك باخعٌ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » . ولكن قريشا ضاقت به ذرعا بعد أن تفننت فى إيذائه ، وأذاقته وصحبه من العذاب ألوانا ، فلم تصل الى غايتها فيمتنعَ عن تبليغ رسالته . وضاق محمد بقريش ذرعا بعد أن كشف لهم عن ظلمات الباطل بنور الحق ، فسخر من آلهتهم ، وعاب معتقداتهم ، وسفه أحلامهم ، وضلل آباءهم . فلم يكن من الهجرة من مكة الى المدينة بد ، حيث تجد الرسالة تربة صالحة تنبت فيها وتنمو وتزدهر ، وتؤتى أكلها بإذن ربها .

فهاجر عليه السلام يملأ اليقين قلبه بنجاح دعوته ، وركب فى رحلته من المراكب أوعرها ، واحتمل من المخاطر أشدها ، وسلك من السبل ما لم يسلك من قبل ، وأوى الى الكهف هو وصاحبه أبو بكر ثلاثة أيام خوف أن تظفر به قريش ، وأن يطفأ فى يده مصباح الرسالة فلا يسطع ضوؤها على البشرية ، ولا تتنسم روح السعادة التى قدرها الله . ومرت به عليه السلام لحظات كان الموت قاب قوس منه لولا عناية الله .

روى أن المشركين طلعوا فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ فأعماهم الله عن الغار ، فرجعوا يترددون حوله فلم يروه . وروى أن أبا بكر قال للنبى صلى الله عليه وسلم : لو نظر أحدهم الى قدميه لرآنا .

عناية ضل كيد المشركين بها وما مكايدهم إلا الأباطيل
إذ ينظرون وهم لا يبصرونهما كأن أبصارهم من زيغها حول

ولقد قاسمه أبو بكر مرارة فراق الأهل والأحبة والوطن ، وشاطره مخاوف الطريق ونصب السفر ، واحتمل خشونة العيش وألم السجن فى الغار ثلاثة أيام ، وهو من نعم رفاهية وثراء ومكانة فى قومه ، وقدم نفسه فى مواطن كثيرة فداء للنبى صلى الله عليه وسلم . قيل إنه لما دخل الغار مزق بردته وحشى ما بالغار من جحَرة ، وبقى جحر واحد فسده بعقبه خوف أن تؤذى الحيات والهوام رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهارا ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون فى ذلك اليوم من الخبر . وأمر عامر بن فهيرة مولاه وراعى غنمه أن يريحها عليهما من الغار ليلا ليأخذا حاجتهما من لبنها . وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما . وعرجت قريش على دار أبى بكر فخرجت إليهم أسماء فقالوا : أين أبوك ؟ فقالت : لا أدرى ، فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشا ، فلطم خدها لطمة طرح من جرائها قرطها ثم انصرف !

وكذلك فعل عليّ رضى الله عنه : فلقد عزم على الهجرة مع النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن النبى رأى أن يستبقيه بمكة حتى يرد الودائع الى أربابها ثم يلحق به — ومكة وقتئذ جحيم تسعرها قريش بالمؤمنين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم — وقدّم نفسه فداء للنبى صلى الله عليه وسلم فنام على فراشه ليلة أزمع على الهجرة ، وتدثر ببردته ليخدع قريشا عنه ، وهو يعلم ائتمار قريش عليه ، وحشدهم له ، وتحفزهم لقتله ، ويعلم أنه قد يدفعهم حرصهم على قتل النبى صلى الله عليه وسلم أن يتعجلوا قتله قبل أن يتميزوا شخصه ؛ كان يعلم ذلك كله ولكن حبه لصاحب الدعوة وتغلغل عقيدة الاسلام فى قلبه جعله يرخص نفسه ويقف هذا الموقف من الفداء والتضحية !

***

هذه لمحة خاطفة مما كان من النبى وأبى بكر وعلى فى حادث الهجرة ، وهى صفحة مشرقة فى التاريخ الاسلامى ، فيها المثل الأعلى للفداء والتضحية فى سبيل الحق والعقيدة والخير العام .

ولقد حققت الهجرة للنبى وصاحبيه ما كانت تصبو اليه نفوسهم من نجاح الدعوة وتبليغ الرسالة ، فقد كانت المدينة التربة الخصبة التى ازدهرت فيها الدعوة واستفاضت الرسالة وعم نورها الأقطار والأمصار ، ووجد بها محمد ومن هاجر معه أنصارا مخلصين وأعوانا مجاهدين ، حملوا معه أعباء الرسالة ، وآزروه بأموالهم وأنفسهم ، وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ؛ فرضى الله ورسوله عنهم . ولهذا اعتبر حادث الهجرة حادثا خطيرا فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، إذ كان مبدأ لانتصار الرسول فى جهاده فى تبليغ الدعوة ، وتوفيقه السياسى فى الدفاع عنها . وكان من حكمة سيدنا عمر أن يجعل ذلك الحادث مبدأ للتاريخ الهجرى ، تخليدا لذكرى ذلك الأمر الخطير ، يذكر به المسلمون صفحة من تاريخ نبيهم وأصحابه ، ويذكرون ما كان منهم من جهاد فى سبيل الحق وفداء فى افتدائه . ولقد تنبه المسلمون حديثا الى هذا المعنى فى ذلك الحادث فجروا على إحيائه فى كل عام ، إحياء لتلك الذكريات التى لاحظها عمر الفاروق رضى الله عنه ، وسموه عيدا هو فى الحق من أجدر الأعياد بالاحتفاء وأولاها بالإحياء .

وبعد : فإنى أتوجه الى المسلمين فى هذه المناسبة بأخلص التهانى بعيد الهجرة المبارك ، وأضرع الى الله أن يحول حالهم الى أحسن الأحوال ، ويوجه قلوبهم الى صاحب الذكرى صلوات الله عليه ، ويوفقهم للتأسى بسيرته ، ويفيض عليهم من بركاته ما يصلحهم فى دينهم ودنياهم ؟

أبو الوفا المراغى

جبابرة رجالات الإسلام

أبو بكر الصديق

آية النبوة الأولى ، ومَمثَل الاسلام الأعلى ، وصنيعة الوحى المثلى ، ومعجزة الشريعة الكبرى ، ومَظهر أسرارها ، ومهبط عرفانها ؛ مَغدى التقى ، ومراح الهدى ، ومثوى الإخلاص ، وكهف الإيمان ، وملجأ الأمة إذا ادلهمت أمورها ، ومأرز الدين عند تفاقم الخطوب ؛ شيخ المؤمنين ، وأول الخلفاء الراشدين ، الذى رأب شعب الأمة ، وكشف بحزمه عنها الغمة ، وجمع بحكمته لها الكلمة ، ولمّ شعث المسلمين ، وشتت شمل المنافقين ، وقهر المرتدين ، وأعاد الدين فتياً قويا ، عظيما قاهراً ؛ أرجح الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيمانا ، وأصفاهم سريرة ، وأطهرهم خليقة ، وأنقاهم فطرة ، وأرسخهم يقينا ، وأعظمهم دينا ، وأكملهم نفسا ، وأرهفهم حساً ، وأهداهم عقلا ، وأخصبهم إنسانية ؛ أرحم المؤمنين بالمؤمنين ؛ أعز الله به الدين ، وأيد به اليقين ، وشد به أزر سيد المرسلين .

عظمة مستسرة ، ونبل يكتنفه الجلال ، وعبقرية فذة غامرة ، سارت فى شوطها على سواء ، كالحلقة المفرغة ، لا يعرف أين بدأت ، ولا أين انتهت ؛ سمو مفطور ، وكمال منشور ، وفضل منظور ، وسمت مشهور ، وأدب من السماء مصدره ، ومن قدس العزة مورده . وما وزن الحياة لرجل : عمر بن الخطاب ، فاروق الاسلام ، وهو من هو ، فى دوى عظمته وجلاله ، إنما هو حسنة من حسناته ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وهم فى فنون الشرف والعبقرية من هم ، إنما كانوا دعوة من دعواته ؟

وفى الحق إن الباحث فى شخصية أبى بكر الصديق رضى الله عنه ليحار ، ويأخذه البُهر إذا أراد أن يعرض لها صورة تحليلية ؛ فهى كالشمس ، يراها الناظر ، ولكنه لا يستطيع أن يسبر بنظره الكليل غورها ، أو يتعرف كنهها ، أو يحيط بفنون ألوان أشعتها ، فهو يحس حرارتها ، ويرى ضوءها ، ويشهد بؤرتها ، ولكنه لا يستطيع أن يحصى عناصر تكوينها .

كذلك كان موقفى حينما أخذت القلم لأكتب عن الصدّيق الأعظم ، فأنا أعلم وأومن أنه أفضل المسلمين وأعظمهم ، ولكن ماهى عناصر هذا السمو الذى أخذ بأرجاء الأرض ثم صعد حتى لاط بالسماء ؟ ها هى ذه أشعة سمو الصديق تضرب بأكناف الدنيا ، فأنا أراها وأحسها ، ويغمرنى الشعور بها ، ولكنى عاجز عن حصرها ، فتهيبت أن أكتب فى سيرته على غرار

ماكتبت فى سيرة الخالدين من رجالات الإسلام ؛ وكان الصديق رضوان الله عليه أحق بالتقدمة ؛ وهذا هو سر الاعتذار عن مجاوزة هذا الحق ، لأنى خشيت أن يأخذ بى الحديث عنه فى سمت لا تواتينى عدتى على إكمال شوطه ، فأردت أن أستأنس بسيرة من استطاع التاريخ أن يرسم لهم صورا مقاربة تلمع من ثناياها أضواء حياتهم ، حتى يكون ذلك وسيلة لرسم صورة مجملة لشخصية الصديق تفى ببعض الحق ، وتوحى الى قادة الإصلاح فى عصرنا طرائق من الخير تعتمد على منازع نفسية من صنع الضمير ، ولا تأبه لهذه المظاهر الجوفاء ، ولا تعبأ بصخب الحياة واضطرابها .

فى الحديث الشريف أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : « تذاكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ميلادهما عندى ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم أكبر » . والنسابة يذكرون أن أبا بكر ولد بعد الفيل بعامين وأشهر ، وهم على شبه اتفاق أن النبى صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل ، فالفرق بين سنيهما عامان بنقص أو زيادة على اختلاف الروايات ، يفرع بهما النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر ، وهذا الفرق فى المعاصرة لا يمثل شيئا ؛ فأبو بكر تنسم نسيم الحياة فى الزمن الذى تشرفت فيه الدنيا بوجود المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وعاش فى البلد الذى عاش فيه ، والبيئة التى نشأ فيها ، فنهد وشب فى مكة حول البيت الحرام ، من بيت قرشى ، فى بيئة عامة على أفسد ما تكون ، وأحط ما عرف الناس من نظام اجتماعى وكيان خلقى ، هى الجزيرة العربية وما تعج به من قبائل متنافرة متناحرة ، عاشت على سفك الدماء ، ونهب الأموال ، وهتك الأعراض ؛ يعبدون الأوثان ، ويعتقدون الخرافات ، ويطوفون بالبيت عرايا ، ويتكسبون بأعراض البغايا ؛ يدمنون الخمور ، ويئدون البنات خيفة العار ، ويقتلون الأبناء خشية الإملاق ، ويستقسمون بالأزلام ، ويذبحون للأصنام ، ويلعبون الميسر ، ويدينون بالهامة ، ويتطيرون ، ويتشاءمون ، يستوى فى ذلك منهم السيد والمسود ؛ انغمسوا فى حمأتها ، واتخذوها شعارهم ، واعتدوا رذائلها فضائلهم ، فتأصلت فى نفوسهم ، فدافعوا عنها دفاعهم عن حياتهم .

وإلى جانب ذلك البيئة الخاصة التى لامست عن قرب أو ملاصقة شخصية أبى بكر فى بيت أبى قحافة أحد رجالات بنى تيم بن مرة ، فرع قريش سيدة القبائل العربية ، ذات الفخر والخيلاء ، والبطر والكبرياء ، والعنجهية الجهلاء ، وخادمة البيت الحرام ، وحامية الدين ، وسادنة الأصنام ، وطريق القوافل التجارية غادية ورائحة ، وسوق التجارة للعرب عامة ، تتبادل فيها سلعها ، وتتمازج فيها لهجاتها .

فما أثر هاتين البيئتين فى تكوين شخصية أبى بكر ؟ وهل استطاعتا أن تجعلا منه مثالا يضرب لهما كغيره من أبناء العرب ؟ أو أن هناك عوامل خفية أو ظاهرة فوق البيئات انتزعت

أبا بكر من بيئته وسبكته فى غير صوغها ، وأقامته على خلاف طرزها ؟ إن الشذوذ عما ألف الناس من مناهج الطبيعة وقوانينها كثيرا ما يكون من سنن خالق الطبيعة تدليلا على إطلاق القدرة الإلهية ، وتقييد العقول البشرية فى مداها الخاص مهما بلغت من القوة والنفاذ .

نشأ أبو بكر فى مكة أم القرى ، والعرب على ما هم عليه ، لا يحسون بشىء من أحداث الكون إلا ما يجلب لهم الخبز والماء ، لا يبالون فى سبيل الحصول عليهما أية طريق سلكوا ، فلم يكن أبو بكر كأحدهم يشهد مجالسهم ، ويقترف آثامهم ، ويأتى منكراتهم ، ويدين بأباطيلهم ، ويعتقد خرافاتهم ، ويأبه لترهاتهم ، ويحفل بمراسم تدينهم ، كلا ، ولكنه كان خلقاً وحده ، وأمة فى نفسه ؛ رأى أن الخمر تنقص العقل فحرمها على نفسه وامتنع عن شربها تعززا وتكرما ، ورأى أن السجود لهـذه الأصنام بلادة فى الفطرة فترفع عنها ، ورأى أن وأد البنات سوأة فى المروءة ووهن فى العرض فلم يأته مطلقا ، ورأى أن قتل الأولاد خشية الإملاق عجز عن الكسب من أشرف طرائقه فأبى أن يفعله ، ورأى فى جميع ما عليه قومه من سىء الخصال ومنكر الخلال مطعنا فى رجولته ومغمزا لإنسانيته ، فاعتزلهم إلا فى المحامد والمكارم ؛ قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب الاستيعاب : « وكان أبو بكر فى الجاهلية وجيهاً رئيسا من رؤساء قريش ، وإليه كانت الأشناق ، والأشناق الديات ، كان إذا حمل شيئا قالت قريش : صدّقوه ، وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه أبو بكر ، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدقوه » .

ورأى أبو بكر محمد بن عبد الله من بين لداته وأقرانه من شباب قريش أكملهم وأزكاهم ، فصادقه ولازمه وجعله قدوته ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخليقة نفسا ، وأعظمهم خلقا ، وأكبرهم قلبا ، وأطهرهم روحا ، وأجلهم أدبا ، وأصدقهم حديثا ، فطرة الله التى فطره عليها ؛ فتآلفا وتحابا ، وأخذ أبو بكر من أخلاق محمد ما اتسعت له فطرته ، وتهيأ له استعداده ؛ وهذا هو سر ما اشتهر عن أبى بكر من مشابهته لبعض أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم قبل النبوة .

ومن أظهر شواهد ذلك حديث ابن الدَّغِنَّة : روى البخارى فى صحيحه عن عروة بن الزبير « أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت : لم أعقل أبوىّ قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا ويأتينا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفى النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى بلغ بَرْك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : أخرجنى قومى ، فأريد أن أسيح فى الأرض وأعبد ربى ؛ فقال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يَخرُج ولا يُخرَج ؛ إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ؛ فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ، ولا يخرج ،

أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟! فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ؛ فقال ذلك ابن الدغنه لأبى بكر ؛ فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ فى غير داره ؛ ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدا بفناء داره ، وكان يصلى فيه ، ويقرأ القرآن ، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم ، وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ؛ فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا الى ابن الدغنة ، فقدم عليهم ، فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا ، فانهه ، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه فى داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان . قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة الى أبى بكر فقال : قد علمت الذى عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع الىّ ذمتى ، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى رجل عقدت له ؛ فقال أبو بكر : فإنى أرد لك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل » .

وفى هذا الحديث ضروب من العلم وفنون من الفضائل ، وأول ذلك ما يَبْدُ هنا فى صدر الحديث من حال النبى صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر وآله وبيته ، ومداومة زيارته لهم طرفى النهار فى أشد الأوقات عليه وأحرجها ، وذلك يشير الى ما ذكرناه من اختصاص النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر بمودته وصداقته قبل النبوة ، فلما جاء الله بأمره الى رسوله الكريم وقاومته قريش أشد المقاومة لم يجد فى هذا الحرج متنفسا إلا بيت أخيه وصاحبه وحبيبه وصفى شبابه أبى بكر يفضى إليه ببعض سره .

وفيه أيضا أن الأذى اشتد بأبى بكر مع مكانته فى قومه فخرج مهاجرا بدينه .

وفيه أن سيد القارة ابن الدغنة أنكر أن مثل أبى بكر يَخْرج أو يُخْرج من بلده ، وأفزعه ذلك معللا له بذكر بعض مناقب أبى بكر ، وهى صفات من أفخر مفاخر العرب ، وأفضل فضائل الانسانية . ومن ألطف ما فى ذلك وأبدعه أن هذه الأوصاف النبيلة هى نفسها التى وصفت بها أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله عنها النبىَّ صلى الله عليه وسلم فى مبدأ الدعوة ؛ قال العلامة ابن حجر فى الاصابة : «ومن أعظم مناقب أبى بكر أن ابن الدغنة سيد القارة لما رد إليه جواره بمكة وصفه بنظير ما وصفت به خديجة النبى صلى الله عليه وسلم لما بعث ، فتواردا فيهما على نعت واحد من غير أن يتوطآ على ذلك ، وهذا غاية فى مدحه ، لأن صفات النبى صلى الله عليه وسلم منذ نشأ كانت أكمل الصفات » .

وفى هذا الحديث أيضا أن أبا بكر كان مشهورا معروفا بين قبائل العرب بالخير والفضائل ، حتى أن قريشا لم تكذب بجوار ابن الدغنة حينما أنكر عليهم إخراجه ، وهو منصف بجماع الخير والبر ؛ ذكر ابن حجر فى الاصابة أن ابن اسحاق قال فى السيرة الكبرى : « كان أبو بكر رجلا مؤلفا لقومه محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر ، وكان تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته » .

وفى هذا الحديث أيضا إبانة عن أثر الإيمان فى نفس أبى بكر ورسوخه أول ما نزل فى قلبه .

وفيه بيان رقة قلبه وأنه لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن لما يفتح الله عليه من جلائل أسراره .

وفيه بيان أثر الإخلاص فى أقسى القلوب وأشدها إعراضا ، حتى أن نساء المشركين وأبناءهم جعلوا ينقذفون على أبى بكر يعجبون منه ، وحتى خشى عليهم منه صناديدهم .

وفيه تتجلى ثقة أبى بكر رضوان الله عليه بربه عز وجل ، ورده جوار ابن الدغنة ، وركونه الى حماية الله تبارك وتعالى ، ورضائه بجواره الكريم ؟

صادق ابراهيم عرجون

معلم يغنى مدينة

كان الحكم بن حنطب من سراة الناس وأجوادهم . قيل لنصيب بن رباح : لقد خرف شعرك أبا محجن (يريد أنه نضب) . قال لا ، ولكن خرف الكرم . لقد رأيتنى ومدحت الحكم بن حنطب فأعطانى ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة .

وسأل أعرابى الحكم بن حنطب فأعطاه خمسمائة دينار ، فبكى الأعرابى ، فقال مايبكيك ، لعلك استقللت ما أعطيناك ؟ قال : لا والله ولكنى أبكى لما أكل الأرض منك ؛ ثم أنشأ يقول :

وكأن آدم حين حان وفاته ... أو صاك وهو يجود بالحوباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم ... فكفيت آدم عيلة الأبناء

الحكم بن حنطب هذا قال عنه رجل من أهل منبج : قدم علينا الحكم بن حنطب وهو مملق فأغنانا . فسأله سائل : كيف أغناكم وهو مملق ؟ قال علمنا المكارم ، فعاد غنينا على فقيرنا .

صفات عباد الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْنا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذابَ جهنم إن عذابها كان غَراما . إنها ساءت مستقرا ومُقاما . والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قَواماً . والذين لا يَدْعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرّم اللهُ إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعلْ ذلك يَلق أثاماً . يضاعَفْ له العذابُ يوم القيامة ويخلُدْ فيه مُهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدّل الله سيئاتِهم حسناتٍ ، وكان الله غفوراً رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله مَتابا . والذين لا يشهدون الزور ، واذا مَرُّوا باللغو مروا كراما . والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يَخِروا عليها صُما وعُميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلْنا للمتقين إماما . أولئك يُجزَوْن الغرفةَ بما صبروا ويُلَقَّوْن فيها تحيةً وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يَعبَأُ بكم ربي لولا دعاؤكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » :

جرى الحديث فى الآيات السابقة حول المشركين والكافرين ، ومزاعمهم وأحوالهم ، وما أعده الله لهم من العذاب : اتخذوا من دون الله آلهة عبدوها ، لا تملك ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا . قالوا عن القرآن : افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون . وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملَى عليه بكرة وأصيلا . قالوا ذلك مع اشتمال القرآن على أسرار الكون وعلوم الغيب التى لا يعلمها إلا الله الذى يعلم السر فى السموات والأرض . قالوا عن محمد صلى الله عليه وسلم : ما نرى إلا رجلا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ؛ ولم يكن هناك رسول قبله إلا كان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . قالوا : لم لا يكون له كنز أو جنة يأكل منها ؟ كان الرسول يجب أن يكون من أغنياء الدنيا وله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة . قالوا : إنه رجل مسحور ؛ وهو الذى دبر أمر تبليغ الرسالة على أحسن وجه ،

وهو الذى ساس أمته فى دينها ودنياها وحروبها وفتوحها . قالوا ذلك وغيره مما أوحى به الحمق والجهل ، وكذبوا بالساعة ، واستكبروا وعتَوا عتوا كبيرا ، حتى إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ وزادهم نفورا . قالوا ذلك مع وضوح الدلالات على وجود الله سبحانه ، وعلى أنه المتصف بجميع الصفات ، ومنهـا صفة الرحمن ، ومع قيام الأدلة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم فى جميع ما جاء به ، ومنه إخباره بالساعة وأنها حق لا ريب فيها .

وفى هـذه الآيات استأنف الله سبحانه الحديث عن خُلّص المؤمنين من عباده ، فذكر أحوالهم فى الدنيا والآخرة ، ووصفهم بصفات كثيرة استحقوا بها وصف العبودية والإضافة الى اسمه الرحمن ، فدل ذلك على أن صفة العبودية أشرف صفات المخلوقين .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » :

قرئ عباد بالكسر جمع عبد ، وعُبّاد بالضم جمع عابد ؛ وهو على الأول من العبودية ، وعلى الثانى من العبادة . والعبودية إظهار التذلل ؛ والعبادة غاية التذلل . والعبد قسمان : مخلص لله تعالى ، ومنه « واذكر عبدنا أيوب » ، « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » ؛ ومعتكف على خدمة الدنيا ، وإياه قصد صلى الله عليه وسلم بقوله : « تعس عبد الدرهم ! تعس عبد الدينار ! » . والهَوْن : الرفق واللين . ومنه الحديث « أحبب حبيبك هـونًا ما » . والجهل : السفه وسوء الأدب .

من صفات عباد الرحمن ترك الإيذاء ، واحتمال الأذى ، حيث لا يترتب على ذلك تهاون بالدين ، أو بالعرض ، أو مذلة لنفس المؤمن .

أشار الله سبحانه الى الأول بقوله : « يمشون على الأرض هونا » : أى مشيا هينا برفق لا تكلف فيه ولا تصنع ، فهو لا يتكلف المشى الهين ، ولا يتكلف ضرب الأرض بقدمه أشراً وبطراً ، ولا التبختر خيلاء ، بل يرسل نفسه على طبيعتها ، لا يقصد الكبر والعلو ، ولا يقصد بالرفق فى المشى الرياء ، ثم يعيث فى الأرض فسادا ، صفته فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « وما أنا من المتكلفين » . المؤمن الذى هذا شانه مؤمن يسلم الناس منه ، ومن أذاه ، ولا يريد فى الأرض علوا ولا فسادا .

وأشار سبحانه الى الثانى بقوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » : أى سدادا من القول بلفظ سلاماً أو بغيره مما يدل على المتاركة وعدم المقابلة بالمثل ، فهو قول لا خير منه ولا شر ؛ أو قالوا هذا اللفظ نفسه على قصد المتاركة لا على قصد التحية ، كما قال إبراهيم عليه السلام لأبيه : « سلام عليك ، سأستغفر لك ربى » . فالمؤمن حليم وإن جُهل عليه . وترك

المقابلة للسفه مستحسن أدبا وشرعا ومروءة ، وهو أسلم للعرض ، على أن لا يترتب عليه مذلة وثلم للعرض والدين ؛ أما إذا ترتب هذا فقد ندب المؤمن للدفاع . فالإعراض الممدوح إنما هو فى مقابلة سوء أدب الجاهل الذى ينتهى أمره بالإعراض والصفح .

ومن لطيف ما يروى أن ابراهيم بن المهدى ، وكان منحرفا على علىّ كرم الله وجهه ، رأى عليا فى النوم تقدم الى قنطرة يعبرها ، فقال له : إنما تدّعى هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك . فقال على لإبراهيم : سلاما سلاما ! ! وقص ابراهيم الرؤيا على المأمون ، وقال : مارأيت لعلى بلاغة فى الجواب كما يذكر عنه . فقال له المأمون : أجابك أبلغ إجابة ، اقرأ قوله سبحانه : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » . فخزى ابراهيم واستحيا .

ومن كلام الحسن رضى الله عنه ، وفيه نزعة صوفية : « المؤمنون قوم ذُلُل ، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى ، وإنهم لأصحاء القلوب ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، والله ما حزنهم حزن الدنيا ، ولا تعاظم فى أنفسهم ما طلبوا به الجنة ! أبكاهم الخوف من النار ؛ وإنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ؛ ومن لم ير لله عليه نعمة إلا فى مطعم ومشرب فقد قل علمه وحضر عذابه » .

المؤمنون كما وصفهم الحسن : رحماء بينهم ، ولكن إذا دعا داعى الحق ، وتعرض الدين أو تعرضت الأوطان للهوان والذل ، كانوا أشداء ، وكانوا الليوث تحمى العرين ، يظهر بأسهم عند الحاجة ، وليس بينهم بأس ، هكذا يجب أن يكونوا ، فأين هم ؟ !

« والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً . إنها ساءت مستقرا ومقاما » :

البيتوتة : أن يدركك الليل نمت أو لم تنم ؛ وهى خلاف الظلول ، ولذلك صح أن تقول : بات فلان قلقا . وقياما : جمع قائم كصيام جمع صائم . وغراما : معناه : موجعا ملحا لازما .

من صفات عباد الرحمن إحياء الليل كله أو بعضه بالصلاة ، ومن أحياه هكذا قيل : بات ساجدا قائما . وقال بعض العلماء : من صلى الركعتين بعد المغرب والركعتين بعد العشاء صح أن يوصف بهذا . ولا يلزم فى عبودية عباد الرحمن إحياء الليل كله أو أكثره بالعبادة ؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم ينام ويقوم ، إلا ما فرض عليه بقوله تعالى : « قم الليل إلا قليلا ، نصفَه أو انقُصْ منه قليلا ، أو زد عليه » . وكان يصوم ويفطر ، وقال : « هذه سنتى ، فمن أعرض عن سنتى فليس منى » . وقد جعل الله الليل لباسا ، والنهار معاشا ، وكلف عباده السعى للحصول على الرزق ؛ والإنفاقُ على من يعوله المؤمن واجب ، والصدقات مندوب إليها ، فكيف يمكن السعى مع قيام الليل كله ؟ وكيف يكون قيامه لازما فى وصف عباد الرحمن ؟

ومن صفات عباد الرحمن أنهم مع اجتهادهم فى العبادة وإحياء الليل ، وجلون حذرون خوف العقاب ، يبتهلون الى الله سبحانه دائما فى طلب صرفه عنهم وبعدهم عنه ، يذكرون أن عذاب جهنم موجع مهلك وملح دائم ، وأنها لهذا بئست المكان الذى ينزل فيه ! وبئست الموضع للإقامة !

والمستقر : ملاحظ فيه معنى القرار . والمقام : ملاحظ فيه معنى الإقامة . وهما فى المعنى واحد لا فرق بينهما ؛ فهو من قبيل قول الشاعر :

. . . . وألفى قولها كذبا ومَينا

والمين هو الكذب . أو يقال : من شأن العذاب فى الآخرة أنه مضرة لا نفع منها ؛ وأشير إليه بقوله : « إن عذابها كان غراما » ؛ ومن شأنه اللزوم ؛ وأشير إليه بقوله : « إنها ساءت مستقرا ومقاما » . واللزوم كما يكون فى الكفار يلازمهم العذاب دائما ، يكون فى العصاة يلازمهم العذاب مدة بقائهم فى النار . ولا وجه لقولهم : إن اللزوم يختص بالكفار .

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يَقتروا وكان بين ذلك قَواما » :

إذا عُرف القوام : وهو الوسط والحد الفاصل بين الإسراف والتقتير ، عُرف الإسراف والتقتير ؛ فإن الإسراف تجاوز الحد ، والتقتير التقصير عن الحد . وقد سمى حد الاعتدال قواما لاستقامة الطرفين حوله واعتدالها . ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء . وليس من اليسير تحديد القوام فى كل الأمور ؛ وقد يسهل فى بعضها على وجه ما . مثلا : يمكن معرفة الجوع والشبع ، والظمأ والرى ؛ فيكون الأكل عند الجوع ، والكف عنه عند الشبع ، والشرب عند العطش ، والكف عنه عند الرى ، قواما . فمن فعل ذلك عد داخلا فى دائرة القوام من حيث الكمية المتناولة . لكن ما هو حد القوام فى نوع الطعام ، ونوع اللباس ، ونوع الصدقات ، وفى غير ذلك مما هو موضع لإنفاق المال ؟

بالرجوع الى قواعد الدين العامة ، وما استرشد به العلماء فى النفقة على الأقارب ، يُرى أن ذلك متروك الى العرف ، وإلى تحديد الذوق العام ، والعرف العام عند طبقات المعتدلين . فعمل المعتدلين فى كل طبقة من الطبقات هو القياس الذى يسمى القوام . وطبقات الناس مختلفة فى اليسار والإعسار ، وفى الشرف والجاه ، وفى الحسب والنسب ؛ والله سبحانه يقول : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قُدِر عليه رزقُه فلينفق مما آتاه الله ؛ لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا » . وما يعد إسرافا عند طبقة يعد بخلا وتقتيرا عند طبقة أخرى . وقد قال الله سبحانه لنبيه : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعدَ ملوما محسورا » . والناس فى كل زمان يفرقون بين الإسراف والتقتير ، ويعرفون ذلك بالإضافة الى كل طبقة والى كل فرد . والمراد من الناس هنا هم العقلاء الذين

لا يرون المال معبودا ، ولا يرونه شيئا لا قيمة له يرمى به ذات اليمين وذات اليسار ، بل الذين يعرفون حق نعمة الله منه ، ويعرفون للمروءة حقها ، وللدين حقه ، وللنفس حقها ، ولله حقه .

ولابد من الرجوع الى هدى القرآن وإلى آياته ليتضح هذا البحث

قال الله سبحانه « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرّم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة ، كذلك نفصّل الآيات لقوم يعلمون »

طلب الله سبحانه التزين للمساجد حسبما يعرفه الناس فى عاداتهم وزمانهم ، كل حسبما يقدر عليه . وروى عن الحسن « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام للصلاة لبس أجود ثيابه ، وكان يقول إن الله جميل يحب الجمال » . وطلب سبحانه الأكل والشرب من غير إسراف وتجاوز للحد ، بل مع التزام حدود القصد والاعتدال ، فإن الإسراف فى الطعام والشراب مضر بالبدن ، والاسراف فيهما وفى غيرهما مضيعة للمال .

والنهى عن الإسراف لا يقتصر على الطعام والشراب ، بل يعم غيرهما . وفى الحديث « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا فى غير مخيلة ولا إسراف ، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » . وعن ابن عباس : « كل ما شئت واشرب ما شئت والبس ما شئت إذا أخطأك اثنان : سرف ، ومخيلة » والمخيلة الخيلاء والإعجاب والكبر .

وبين الله سبحانه أن الزينة فى الدنيا والطيبات من الرزق ، للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويشاركهم غيرهم فيها ، ولكنها فى الآخرة خالصة لهم لا يشاركهم غيرهم فيها .

وفى القرآن الكريم أيضا « لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » . فقد نهى الله سبحانه عن ترك الطيبات تنسكا وعبادة ، وطلب عدم تجاوز الحد الى الاسراف الضار بالجسد ، والإسراف الضار بالمال ؛ وطلب عدم الاسترسال فى الشهوات من مطعم ومشرب وغيرهما ، حتى لا تكون اللذات هى الهمَّ الأكبر من الحياة ، فان للمؤمن فى الحياة قصدا أسمى هو العلم ، والمعرفة ، والعبادة ، واكتناه سر الوجود ، والاحسان الى الناس ، والنفع العام للجماعة . وإذا كانت اللذات مشغولا بها الى حد البحث والطلب والانتظار والألم عند فقدها ، كان ذلك صارفا عن المقاصد السامية للمؤمن . وقد أنكر الله سبحانه فى الآية السابقة على من حرم زينة الله التى أخرجها لعباده ، فإن التحريم والتحليل حق الله لا يشاركه أحد فيه .

أباح الله الطيبات وحرم الخبائث حرم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، وحرم المسكر وكل ضار ، وحرم على الرجال الحرير المُصْمَت الخالص أو ما كان الحرير غالبا فيه ،

وحرم التشبه بغير المسلمين فى اللباس ؛ وذلك أن يلبس المؤمن ثوبا هو شارة مختصة بطائفة غير مسلمة . ثم أباح ما عدا ذلك على شرط القصد والاعتدال ، وذلك هو الموافق للفطرة ؛ فقد فطرت النفوس على الاستمتاع بالدنيا والطيبات من الرزق ، وأعطى الاسلام بذلك البدنَ حقه ، كما أعطى الروح حقه . وقال صلى الله عليه وسلم : « إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم » .

طلب الله القصد والاعتدال . وفى الحديث الشريف « الاقتصاد نصف المعيشة ؛ وحسن الخلق نصف الدين » . وفى الحديث « نعمّا المال الصالح للمرء الصالح ؛ وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ؛ واليد العليا خير من اليد السفلى » . وقال فى الوصية : « الثلث ، والثلث كثير ؛ إنك إن تذرهم أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس » .

هذا هو هدى القرآن : لا يحرم الزينة والطيبات من الرزق ، وينكر على من يحرم ذلك ، كما تفعل بعض الأمم وبعض الملل ؛ لكنه يطلب القصد ، فلا يجيز المباراة فى الزينة واللباس والحلىّ والمبانى وغير ذلك ؛ تلك المباراة التى خربت بيوتا كثيرة عامرة بسبب المغالاة فى الأفراح والحفلات واقتناء أداة الزينة التى لا يقدر مقتنيها عليها ؛ وقد كانت هذه المباراة وتلك المغالاة سببا فى خروج الثروة الى أيدى الشياطين ، وكانت سببا فى ضعف حال المسلمين .

هذا هو الهدى ؛ لكن بعض العلماء رووا أحاديث فى الزهد ، منها الموضوع ، ومنها الضعيف . ولا شبهة فى أن بعض الخلفاء وبعض الصحابة وبعض الأئمة زهدوا وتقشفوا ، وأعرضوا عن طيبات الدنيا وعن زينتها ؛ لكن لهذا أسبابا ، منها ضيق ذات اليد قبل أن يفتح الله عليهم أبواب الرزق ؛ ومنها مقاومة الفساد بعد أن فتح الله أبواب الدنيا واستولوا على ملك كسرى وملك قيصر ، ووجدوا ما لم يكونوا يعرفون من قبل ، واندفع بعضهم فى الاستمتاع دون الوقوف عند الحد ، وعند القصد ، وعند القوام .

وفى الرجوع الى الهدى المحمدى تبصرة ونور ، وضياء وشفاء . عن ابن عباس : لقد رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلل . وقد لبس صلى الله عليه وسلم الإزار والرداء ، ولبس الجبة والفَرُّوج ، وهما ثوبان يشبهان القباء والفرجية ، ولبس الخَميصة المُعْلمة والساذَجة ، ولبس فروة مكفوفة بالسندس ، وكان له جبة طيلسانية خسروانية لينة ، وكان له بردان أخضران وكساء أحمر ، وكان يحب الحَبَرة وهى ضرب من البرود ؛ لكن غالب ثيابه وثياب أصحابه نسيج القطن والصوف والكتان .

فسنته صلى الله عليه وسلم فى اللباس أن يُلبس ما تيسر على أن لا يكون نوعه محرما . وكان يحب فى الطعام الحلوى ؛ وقد أكل الضأن والدجاج والجزور ولحم الحُبَارى وطعام البحر ، وأكل الشواء والرطب والتمر ، وشرب اللبن خالصا ومشوبا ، وشرب نقيع التمر ، وأكل القديد

والدُّبَّاء ، والتمر بالزبد ، وكان لا يشرب إلا النظيف العذب ، ويحب البارد الحلو ، وكان يجاب اليه الماء العذب من مسافة يوم أو يومين .

لم يكن صلى الله عليه وسلم فى الطعام واللباس يرد موجودا ، أو يتكلف مفقودا ؛ وما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله ، إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم ؛ وما عاب طعاما قط ، إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه .

هذا هدى القرآن والهدى المحمدى فى تناول الطيبات ؛ فمن تركها زهدا وتدينا وعبادة فلا حق له ؛ ومن أسرف فى الزينة واللذات فلا حق له ؛ ومن بخل على نفسه وعلى غيره وعشيرته فلا حق له ؛ ومن اتبع القوام فهو من عباد الرحمن الذين وصفهم الله سبحانه بأنهم إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان أمرهم بين ذلك قواما .

ومالك رضى الله عنه إمام فى الدين ، وإمام فى التقى ، لبس الدقاق ، وأكل الرقاق ، وجلس على الوطى ، واتخذ حاجبا . وعابه يحى بن زيد النوفلى ، فقال له مالك : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » . غير أن مالكا تواضع فقال إن ترك ذلك خير من الدخول فيه . وربما كان الترك خيرا حتى لا يزيد الناس على مالك فيسرفوا ، وهو قدوة ، فيكون عمله سببا فى إسراف غيره .

« والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلقَ أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب الى الله متابا » :

الأثام : جزاء الإثم ، مثل النكال والوبال وزنا ومعنى . والخلود : المكث الدائم ، ويستعمل فى المكث الطويل .

من صفات عباد الرحمن التفكر فى خلق السموات والأرض ، واستعمال العقل واحترامه فيما هو خاص بسلطانه ويمكن أن يصل إليه ، فهم يستدلون بالعالم المصنوع على الخالق الصانع وعلى وحدته ووجوبه ، واختصاصه بالعبادة لاختصاصه بجميع صفات الكمال ؛ ولذلك لا يشركون فى عبادة الخالق أحدا ، حيا أو ميتا ، فى السماء أو فى الأرض ، لأن كل ما عداه لايضر ولا ينفع ، ولا يحيي ولا يميت ، ولا يملك عند الله شفاعة إلا بإذنه ، فهو وحده المعبود ، وهو وحده المستعان ، وهو وحده المقصود بالضراعة لتفريج الكرب وكشف السوء .

ومن صفاتهم عدم الاعتداء على النفس التى حرّم الله قتلها ، فلا يقتلونها إلا بحق ، من كفر بعد إسلام ، أو زنا بعد إحصان ، أو قتل نفس .

ومن صفاتهم المحافظة على العرض ، فلا يقربون ما حرم الله قربانه عليهم .

نفى الله سبحانه عن عباد الرحمن هذه المنكرات الشنيعة ، بعد أن وصفهم بالصفات السابقة من العبادة ، والخوف من النار ؛ ومن حق هذه المنكرات أن يسبق نفيها على ذكر الأوصاف السابقة ، فإن الموصوف بالأوصاف السابقة لا يمكن أن يكون متصفا بشىء من هـذه المنـكرات . وسبب هذا هو التعريض بمـا كان عليه أعداء المؤمنين من قريش وغيرهم ، كأنه بعد أن وصف عباده بالصفات السابقة قال : والذين هم مطهرون مما أنتم عليه .

وعن ابن مسعود : قلت : يارسـول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يا كل معك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك .

بعد أن نفى الله سبحانه عن عباد الرحمن هذه الموبقات ، بيّن عقاب مقترفها فقال : إنه يلقى نـكالا ، ويضاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه محتقرا ذليلا ، يجمع بين العذاب المـادى والعذاب الروحى .

واسم الإشارة فى قول الله : « ومن يفعل ذلك » عائد على الأمور الثلاثة ، وهى : الشرك ، وقتل النفس ، والزنا ، كما هو الظاهر . ولا خلاف عند العلماء فى مضاعفة العذاب والخـلود لهؤلاء إذا فسرت مضاعفة العذاب بالتشديد فيه ؛ أو قيل إن الـكفار يعذبون على المعاصى ، ويعذبون على الشرك . وأما إذا قيل إن الـكفار لا يعاقبون على المعاصى فلا بد من إرادة الشدة فى تفسير مضاعفة العذاب . ولا شبهة فى أن العذاب على الـكفر شديد . ويدل على أن اسم الإشارة مرجعه الأمور الثلاثة ما ذكر فى الاستثناء من قوله سبحانه : « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا » فإن نقيض ذلك هو الشرك وغيره من المعاصى ، وهى هنا قتل النفس والزنا .

بين الله سبحانه جزاء مرتكب هذه الموبقات ، ثم بين أن الذى يقلع عنها ويرجع الى الله سبحانه ، فيؤمن به ، ويعبده لا يشرك معه غيره ، ويعمل الصالحات ، يبدل الله سيئاته حسنات ؛ والله غفور رحيم .

فما معنى هذا التبديل ؟ وهل هو فى الدنيا أو فى الآخرة ؟

قال قوم : التبديل فى الدنيا ، ومعناه أنهم يوفقون الى محاسن الأعمال ، يؤمنون ولا يشركون ، ويجاهـدون فى سبيله فيقتلون أعـداءه ولا يقتلون أولياءه ، ويعفـون ولا يفجرون . فالتبديل تيسير للأعمال الصالحة ، وتوفيق اليها .

وقال بعضهم : التبديل فى الآخرة . وأحسن ما قيل فيه : أنه يضع بدل عقاب السيئة ثواب حسنة ، فهو تبديل الجزاء لا تبديل الأعمال .

والاستثناء فى قوله : « إلا من تاب » مع قوله : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » ينفى العذاب كما ينفى مضاعفة العذاب بعد التوبة .

ومعنى قول الله سبحانه : « ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا » أن من يترك المعاصى ويندم على فعلها ويدخل فى العمل الصالح ، فانه بذلك يعد تائبا الى الله متابا مرضيا عنده مكفرا للخطايا ومحصلا للثواب . وقد قيل : "لله أفرح بتوبة العبد من المقلّ الواجد ، والظمآن الوارد ، والعقيم الوالد .

وقد قيل : إنها نزلت لبيان أن من يتوب بعد نزولها له حكم من تاب قبل ذلك ؛ فإن المشركين الذين كانت آية « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر » تعريضا بهم ، ظنوا أنها خاصة بمن آمن قبل نزولها ، فنزلت هذه الآية لبيان أن حال التائبين سواء .

« والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما » :

الزور : الباطل . وأصله تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيل الى من رآه أنه خلاف ما هو به . ومن عادة صاحب الباطل أن يزينه ، فهو يزين الشرك ، وينمق الكذب ، ويحسن المعاصى . وحضور الزور شهوده .

واللغو : كل ما ينبغى أن يطرح ويلغى . وأصل كلمة الكريم ماخوذة من قولهم : ناقة كريمة ، إذا كانت تعرض عن الحلب تكرما ، كأنها لا تبالى بما يحلب منها لغزارة لبنها ؛ واستعير ذلك للصفح عن الذنوب .

من صفات عباد الرحمن أن لا يحضروا باطلا ، ولا يساعدوا عليه ، وأن ينكروه ، فهم لا يحضرون مجالس الشرك والعصيان بأنواعه ، ينزهون أنفسهم عن الشر وأهله ، فان مشاهدة الباطل إعانة عليه وشركة فيه . ومن كلام عيسى : « إياكم ومجالسة الخطائين » . وشهادة الزور أمام القاضى من الزور المنهى عنه . ولا يجوز أن يخص الزور بالشرك أو بالكذب أو بالخوض فى القرآن والأنبياء ، بل يجب أن يكون عاما لكل باطل .

لا يحضرون الباطل ، وإذا مروا به مروا كراما ، معرضين عنه ، منكرين إياه ؛ وإذا قدروا على تغييره غيروه . وقد يكون مر الكرام بالمجالدة بالسيف ، كما إذا مر على قاطع طريق واستغاث به أحد ، فمر الكرام إذ ذاك يكون بالنجدة ولو أدى ذلك الى استعمال السيف .

« والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » :

خر : سقط . وإذا قلت : خر أعمى أصم ، فمعناه الحرفى سقط أعمى أصم . ولكن العرب لا تريد ذلك من مثل هذا ، بل تريد : أقبل عليها أعمى أصم . وإذا قلت : لم يخر على الآيات

أعمى أصم ، كان معناه لم يقبل عليها كالأصم لا يعى ، وكالأعمى لا يبصر ما فيها ، مع إظهار الحرص عليها .

ونظير هذا التركيب من كلام العرب قولهم : سببت فلانا فقام يبكى ؛ يريدون فظل يبكى به ، ولا قيام هناك ، ولعله أن يكون بكى قاعـدا ؛ ونهيت فلانا عن كذا فقعد يشتمنى ، معناه فجعل يشتمنى ، وقد لا يكون هناك قعود . جرى هذا على ألسنتهم وفهموه .

ومعنى الآية : أنهم إذا ذكروا بآيات الله أكبوا عليها وأقبلوا ، سامعين بآذان واعية ، مبصرين بعيون راعية ، فليس حالهم كحال من إذا ذكر بالآيات رأيته كالأصم لا يعى ، وكالأعمى لا يبصر ؛ ومن يسمع بآذان واعية وعيون راعية يتدبر الآيات ، ويتذكر ويتعظ ، ويتبصر ، ويقف عند الحدود ، ويرعى حق الواحد المعبود .

« والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما » :

قرة العين : هى السرور والفرح ، مصدر من قرت عينك قرة ، أى فرحت وسررت ، لأن الفرح يجعل العين قارة ، أو لأن دمعة العين من السرور باردة . والإمام : الحجة المقتدى به . ووحدت القرة لأنها مصدر ، ولا تكاد العرب تجمع المصادر . ووحد الإمام لأنه ذهب به مذهب الاسم لا الصفة ؛ وإذا ذهب به هذا المذهب وُحد ، ويكون معناه : حجة . تقول : هم إمام ، أى حجة ، كما تقول : هم بينة . وقال بعضهم : إن الإمام جمع آم ، كصيام فى جمع صائم .

بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمة جاهلة ، على أشـد حالة بعث عليها نبى فى فترة ، ما يرون دينا أفضل من عبادة الأوثان ، فجاء بفرقان فرق بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، حتى كان الرجل يرى ولده ووالده وأخاه كافرا ، وقد فتح الله قلبه للاسلام ، وهو يعلم أنه إن مات قريب له من هؤلاء دخل النار ، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار ؛ لذلك كان المسلمون يطلبون من الله أن يهب لهم من ذرياتهم وزوجاتهم من يطيع الله ويعبده لتقر عينهم بهذا . ومن الطبيعى فى النفوس أن يحب الشخص لذريته وأهله ما يحب لنفسه ، وأن يتمنى أن تـكون البيئة التى هو فيها من ذريته وأزواجه بيئة صالحة . والبيئة الفاسدة تجعل العيش مريرا ، وتذهب بالفكر وتقسمه ، فـلا يستقيم عيش ، ولا تتجه النفس اتجاها كاملا الى الخيرات والعبادات والنفع العام .

من صفات عباد الرحمن أن يطلبوا ذرية صالحة مؤمنة ، وأزواجا مؤمنات . ومن صفاتهم أن يطلبوا من الله درجات عاليات فى التقوى والطاعة يشار اليها ، ويقتدى بهم فيها .

« أولئك يجزون الغرفة بمـا صبروا ، ويُلَـقّـون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » :

الغرفة : العُلِّيَّة . وكل بناء عال فهو غرفة . وقد ذكرت الغرفة واحدة والمراد الغرفات ، لدلالة الواحد على الجنس ، بدليل قوله سبحانه : « وهم فى الغرفات آمنون » ، وقوله : « لهم غرف من فوقها غرف » والمراد بها الدرجات العالية فى الجنة . والتحية : الدعاء بالتعمير . والسلام : الدعاء بالسلامة .

بيّن الله سبحانه أنه أعد لعباده الموصوفين بالصفات السابقة جميعها جزاء على صالح أعمالهم هو الدرجات العالية فى الجنة ، وفيها تتلقاهم الملائكة بالتحية والسلام ، فيدعون لهم بالتعمير والخلود ، ويدعون لهم بالسلامة . هذه الدرجات استحقها هؤلاء بصبرهم على الطاعات ، وعلى ترك الشهوات ، وعلى أذى الكفار ومجاهدتهم ، وعلى الفقر والمصائب ، وغير ذلك مما يعرض للمؤمن من المكروه . وهذا دليل على أن المؤمنين يستحقون الجنة بأعمالهم . وهذا الاستحقاق بوعد الله سبحانه ، وهو صاحب الفضل فى وعد عباده بالجنة ، وبهذا الوعد استحقت الجنة .

« قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذّبتم فسوف يكون لزاما » :

يقال : ما أعبأ بفلان ، أى ما أصنع به ، كأنه يستقله ويحتقره ، فوجوده وعدمه سواء وهو بمنزلة قولهم : لا وزن له عندى .

أمر الله سبحانه رسوله أن يقول للناس إنه لا وزن لهم عنده لولا العبادة ، فلولاها ما اكترثت بهم ؛ ولا يوجد معنى آخر ينظر إليه الله سبحانه فى عباده سوى العبادة ، لأنه قال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . فلولا الإيمان والعبادة والتوجه إليه فى الشدائد ، وشكره على الإحسان ، لما نظر إليهم نظرة اعتداد ، وهو فى غنى عن العبادة لا شبهة ؛ وما طالبهم بها إلا لمصلحتهم ومصلحة الخلق ونظام العالم .

ثم وجه إليهم الخطاب فقال : « فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » : يعنى فقد خالفتم بالتكذيب حكمى ، وسوف يلزمكم أثر ذلك التكذيب ، فتكبون فى النار . ونظير ذلك أن يقول ملك لمن استعصى عليه : من عادتى أن أحسن الى من يطيعنى ويتبع أمرى ، فقد عصيت فسوف ترى ما أحله بك بسبب العصيان .

والخطاب موجه الى الناس عامة ، ومنهم مؤمنون عابدون ، ومنهم مكذبون عاصون ، فخوطبوا بما وجد فيهم من العبادة بقوله : « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » ، وبما وجد فيهم من التكذيب بقوله : « فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » .

والآن نلخص أوصاف عباد الرحمن : فهم هينون لينون لا يمشون فى الأرض فسادا ، وهم صابرون على الأذى لا يجهلون على من يجهل عليهم ؛ وهم قائمون الليل فى عبادة الله ،

قانتون وجلون ، يطلبون النجاة من العذاب ؛ وهم على العدل والقصد فى أموالهم لا يسرفون ولا يقترون ، ولا يعبدون غير الله سبحانه ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، ولا يفجرون ويعتدون على من حرم الله ، ولا يحضرون مجالس الباطل ، وإذا مروا بها مروا كراما ، وإذا ذكروا بآيات ربهم أقبلوا عليها مستمعين واعين ؛ وهم لا يحبون وسط السوء وبيئة المعصية ؛ فهم يطلبون ذرية صالحة ، وأزواجا صالحات ؛ وهم راغبون فى الطاعة يطلبون أن يكونوا أئمة فيها يشار إليهم ويقتدى بهم .

هؤلاء هم عباد الرحمن الذين أعد الله لهم غرفا فى الجنة ، ودرجات عالية ، تحييهم الملائكة وتسلم عليهم ، ووعدهم الخلود فى تلك الغرف ، وهو نعم المستقر ونعم المقام .

وقد اشتملت هذه الأوصاف على ما يسمى الضروريات ، وهى حفظ النفس والعرض والمال ، وحفظ العقل من التدنى فى الرجس والإشراك والمعتقدات الفاسدة ؛ وعلى حال العبد مع الله ، وحاله مع الناس .

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من عباد الرحمن فى غرفات الجنات ، نُلَقى من الملائكة تحية وسلاما .

من أخلاق الشريعة وآدابها

عرضنا فى بعض الأعداد السابقة لماما لمبلغ ما أفاضته الشريعة السمحة على الوجود من البر به والحدب عليه ، وما أشادته فى بناء الإنسانية وصرح المجتمع من المثل العالية المنبثة فى الكائنات .

فالأخلاق المثالية المتوارثة تنمو وتزداد نماء على هدى الفرقان والسنة ، لأنها أخلاق بقاء ما بقى هـذا الوجود يشع فى أجزائه المثل الصالحة . فالشريعة التى حملت الى الانسانية بين أطوائها فيما حملت الحض على اعتناق الآراء الصحيحة والعقائد السليمة والمبادئ القيمة والمثل العالية ابتغاء توجيهها الى خير طريق وأبلج محجة ، وتجنيبها الآراء الفطيرة والمعتقدات الضارة الفاسدة التى ترديها فى مباءة الشهوات الجامحة والنزوات الطامحة ، شريعة البقاء السرمدى ، ووحى الخلق المثالى . ثم هى بعـد ذلك تدعو الناس فيما تدعو الى تجنب الأخـلاق الضارة الوبيئة العاقبة ، كظن السوء والحقـد والحسد ، وتتبع العورات والكبر والاختيال والغيبة والنميمة ، ثم تتسامى بالمجتمع فترشده الى أن الاغراق فى المديح لوثة أخلاقية لاينبغى للمسلم أن يتخذها له شعارا ، وأن السب والقذف واللعن والفحش واحتقار المسلم وهجره والجدل والمراء والبخل وسوء الخلق والكذب والنفاق مما ينبغى لكل مسلم أن يترفع عنها ، وأن يقى نفسه شرورها ومآثمها .

أخرج الشيخان فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا » .

وأخرج أبو داود فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إياكم الحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

وهل أبلغ فى الدعـوة الى اعتناق المثل الفضلى والسير بالانسانية فى أفضل وسائلها وأعلى أنماطها بنبذ الشحناء والبغضاء فى القلوب والقضاء على إحن الصدور ووساوس النفوس لتتعاون الهمم العلية الصادقة المؤمنة فى بناء صرح الانسان الكامل حتى يؤدى كل رسالته الى المجتمع على طاقته ، من تلك المبادئ النبوية السامية ؟

فنظرة فاحصة الى قصة مثالية يرويها الزبير بن العوام فيما يروى عن الرسول الأعظم تقوم آية الآيات على سمو الدعـوة المحمدية بالانسانية الى أوج الكمال الانسانى وأعلى مراتبه . فقد أخرج الامام الترمذى فى صحيحه عن الزبير بن العوام رضى الله عنهم عن النبى صلى الله عليه

وسلم أنه قال : « دب اليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بما يثبت ذلكم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

ثم يأتى دور تتبع العورات ، وتتبع العورات من النقائص الخلقية التى كفل الشارع حماية المجتمع منها ، فإنها مفسدة للخلق والدين . فالمتتبع لعورة أخيه المسلم إنما يبتغى أن تشيع الفاحشة الخلقية فى المؤمنين ، فيأخذ الله لهم بالجزاء حيث يتتبع الله عورته ، فإن بدا للمرء ما يحمل على الريبة فى شأن أخيه والتظنن به فلا ينبغى له أن يأخذ أخاه بتلك الريبة ، وإنما يأخذه باليقين وصادق البينة . فقد أخرج أبو داود والترمذى فى صحيحيهما عن أبى برزة أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فنادى فى الناس بصوت رفيع : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه : لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فانه من تتبع عورة المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله » .

وقيل لعبد الله بن عمر رضى الله عنه : هذا فلان تقطر لحيته خمرا ، فقال : إنا نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذ به . فالعبرة المستخلصة من ذلك أن زعيم البيت أو الجماعة أو الأمة إذا حاول أن يستريب فى قومه وأن يتعرف مثالبهم على غير بينة وحجة ، أشاع فيهم الفساد والفرقة وانقسام الكلمة ، ودلهم على شر مستطير أقله التبرم به والكيد له والخروج على أوامره .

ويأتى فى أثر العيوب الأخلاقية الكلام عن الكبر والخيلاء . والكبر والخيلاء خلة تستتبع المقت من الناس بعد المقت من الله ، فقد انفرد سبحانه بالعظمة والكبرياء ؛ فالمتكبر ينازعه فيهما ويتحداه عليهما .

أخرج أبوداود ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما قذفته فى النار » .

وأخرج مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » قال رجل : يا رسول الله إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا . قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » . وأخرج مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » .

فالعبر المستخلصة من تلك المبادئ الأخلاقية شواهد صدق على أن الشريعة السمحة قد أحاطت المجتمع بسياج من الخير صفيق ، وأوحت اليه الشعور بصدق رسالة الانسان الى أخيه الانسان . وإلى الغد ؟

عباس طه

في عالم المؤلفات الجديدة

خواطري — تحت ضوء القمر

أحسن ما توصف به الرسالة التي تحمل هذا الاسم أنها عصارة تفكير ناضج عميق في الحياة الانسانية ، وفي الوجود الذي قذف بها اليه لتتطور فيه ، وفي عوامل هذا التطور ، وفي القواطع التي تحتوشها ، وفي الأهـواء والأوهام التي تلازم الطبيعة البشرية وتلون بها ما تندفع اليه بألوان خـداعة ، وفي الجماعة وسلطانها ، والوراثة وتأثيرها ، والتقليد ونتائجه ، وفي النفس والقوى المستكنة فيها ، والمناعة التي تستطيع أن تتقي بها شرور المجتمع لو أرادت الخ الخ .

تفكير عميق في كل هذه المناحي معبر عنه بعبارات طلية أخاذة من قبيل الشعر المنثور يتراوح بين الابداع والاجادة ، وإن كان لا يخلو أحيانا من غموض ، وهو أقل ما يصادف في هذه الرسالة .

أتدري لمن أهدى رسالته هذه ؟ لا الى ذي جاه ، ولا الى ذي مال ، ولـكن :

الى الحائر بين أكوام الحياة وصخورها .

الى المطل من نافذة الحياة على الوادي العميق .

الى العالق بصره بالفجر الرائع في جوف الزمن .

الى التائه بين الأشواك والزهور .

الى السائر تحت الشعاع المنصب من السماء الى الأرض .

الى الذين انتزعت من حياتهم المعاني .

مما يزيد في إعجابنا بهذه الرسالة أنها لطالب في الجامعة الأزهرية لم تتجاوز سنه العشرين ، هـو الأستاذ الشيخ محمود حسين مرعي . وكنا نود أن ننقل منها فقرات كثيرة فمنعنا ضيق الصحيفة ، فنجتزئ ببعض ما كتبه في مقدمتها وهو قوله :

« وسواء أأصغى هؤلاء الحيارى لصوتي أم جعلوا أصابعهم في آذانهم فانني لم أكتبه إلا إجابة للصوت الذي يهتف في داخـل الانسان ، وإلا رغبة في أن ينتبه هؤلاء قبل أن تهوى النفوس في الحفر العميقة » .

ونحن ندعو لهذه النفس الطيبة الناشئة أن تتأدى الى أفضل ما يذكره عن النفس الهادئة المطمئنة ، وأن يثبته فيما يعتقد ، وأن يبلغ بإيمانه الراسخ الغايات البعيدة ، ليصبح واحدا من

الألمعيات الكثيرة التى تفتحت أكمامها بين أكناف الأزهر ، وبخدم المجتمع الاسلامى فى الناحية التى يعمل فيها ، وهى أخص نواحى الانسانية الفاضلة .

الشموس المشرقات فى المخلفات النبوية

يسمع الناس عن المخلفات النبوية ولا يعلمون عنها شيئا يعتد به ، فقيض الله لسد هذه الثلمة فى المطبوعات المصرية حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ حسين محمد الرفاعى من أفاضل علماء الأزهر ومن كبار موظفى دار الكتب المصرية ، فوضع كتابا حافلا بالمعلومات الدقيقة عن المخلفات النبوية وحلاه بصورها . فبدأ بما كان للنبى صلى الله عليه وسلم من الأرقاء ومن السيوف والدروع والأقواس والرايات والخيول والدواب والنوق والجمال والأغنام .

ثم ثنى بسرد ما هو موجود الى اليوم من تلك المخلفات . فتكلم عن القضيب والبردة والعمامة والخاتم ، والسرير والمنبر . وذكر ما وجد من قدميه صلى الله عليه وسلم فى الصخور والنعال التى كان يلبسها والركاب والشعرات . ويلى ذلك كله سيرة كاملة للنبى صلى الله عليه وسلم .

هذا الكتاب فذ فى بابه لما اشتمل عليه واستوعب تاريخه مما لا يعثر عليه فى كتاب آخر . فنشكر لفضيلة مؤلفه حسن صنعه ، ونرجو له زيادة من التوفيق لخدمة دينه وبلاده .

بحر الأنساب ، وبحر الأنساب المحيط ، ونور الأنوار

هذه ثلاثة كتب مجموعة فى كتاب واحد أولها تأليف الأستاذ السيد محمد بن أحمد ابن عميد الدين على الحسينى النجفى النسابة . والثانى والثالث تأليف حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ السيد حسين محمد الرفاعى مؤلف الكتاب المتقدم . فأما الكتابان الأولان فقد تكفلا ببيان أسماء وأنساب وأصول وفروع وتواريخ ووفيات ومناقب ومشاهد جميع الأشراف المنبثين فى بقاع الأرض . وهو عمل جد خطير يقتضى من التحقيق والتمحيص والتثبت ما لا يقدم عليه إلا الكبار الغيورين على حفظ نسب البيت المحمدى ، وتطهيره من الدخيل . فنشكر فضيلة واضعه ، معجبين بغيرته ، مثنين على همته ، راجين لكتابه الحظ الوفير من الانتشار والذيوع .

الاشتراكات الجديدة

بهذا العدد تبدأ مجلة الأزهر سنتها الثانية عشرة . اشتراكاتها تدفع مقدما بإذن على بريد الأزهر . وتقبل تقسيط الاشتراك كرغبة الطالبين . وننبه هنا أن لا يكتب فى الإذن أمام مكتب البريد (مصر) ولكن يكتفى بكتابة كلمة الأزهر فقط .